أضواء

مقالات في العلم والدعوة والمنهج

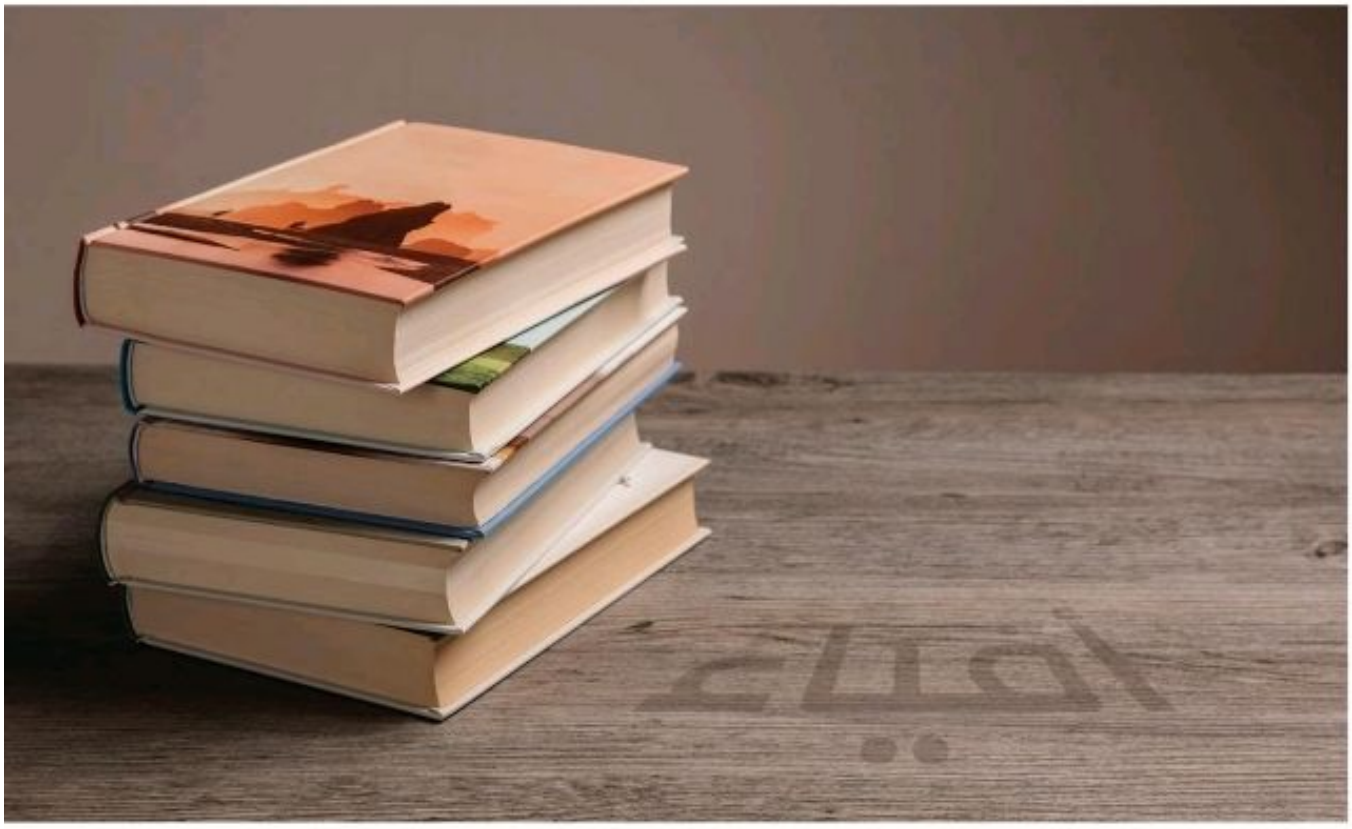

أ. د. عمر بن عبد الله بن محمد المقبل

الأستاذ في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة القصيم

العبيكان
Obeikan

أفياء

مقالات في العلم والدعوة والمنهج

أ. د. عُمَر بْن عَبْد الله بْن مُحَمَّد المُقْبِل

الأستاذ في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة القصيم

العبيكان
Obeikan

© عمر بن عبدالله بن محمد المقبل، ١٤٣٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المقبل، عمر بن عبدالله بن محمد.

أفياء./ عمر بن عبدالله بن محمد المقبل.-ط١

المذنب، ١٤٣٩هـ.

١٨٤ ص؛ ١٤ × ٢١ سم.

ردمك: ٤-٧١٥٠-٠٢-٦٠٣-٩٧٨

١- الدعوة الإسلامية. أ.العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٣٩/٧٥٢٩

حقوق الطباعة محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م

نشر وتوزيع العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية - الرياض

طريق الملك فهد - مقابل برج المملكة

هاتف: ٩٦٦١١٤٨٠٨٦٥٤+، فاكس: ٩٦٦١١٤٨٠٨٠٩٥+

ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرياض ١١٥١٧

www.obeikanretail.com

العبيكان للنشر Obeikan Publishing

obeikanpub obeikan.reader

للحصول على كتبنا الورقية

وادي wadi

سوق amazon إحدى شركات

للحصول على كتبنا الصوتية

Kitab Sawti www.kitabsawti.com

دار صاد للنشر الإلكتروني WWW.SHAD.SA

للحصول على كتبنا الإلكترونية

Google Play

أجهزة amazon kindle

جميع الحقوق محفوظة. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ (فوتوكوبي)، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من المؤلف.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيسرني أن أقدم للقراء الكرام هذه المجموعة من المقالات، تنتظم موضوعات مختلفة في العلم والدعوة والمنهج؛ كتبت في أوقات متفرقة، ومناسبات متنوعة، لتَنْضَمّ إلى شقيقاتها التي صدرت سابقًا في جزءين حَمَلا اسم (مرافئ).

ولا يخفى أن طبيعة المقالات تحتّم الحديث بأسلوب مركّز، قد يكون غرض الكاتب لفت النظر إلى قضيةٍ ما تحتاج إلى دراسة موسّعة، دون الدخول في التفاصيل، وقد يكون الغرض التركيز على العلاج فحسب.

وإني لأرجو أن يكون هذا الكتاب مقبولًا عند الله، ثم عند إخواني وأخواتي من القراء الكرام، الذين أرجو ألا يبخلوا على أخيهم بتسديد وتقويم أنتفع به، فالقراء هم الرصيد الحقيقي للكاتب، والمرآة التي يبصر بها قصوره.

عمر بن عبدالله المقبل

Omar1427@gmail.com

جوال (تليغرام): 0555154491

التفكير بالموجود

١٣/ ٢/ ١٤٣٦هـ

المشـــاهَد أن لغةَ التذمُّر من الزمن، ومِن الواقع المعيش - ســـواء على المســـتوى الفردي أو المجتمعي- ترتفع بشكل مستمر، ساعد على ذلك: مواقع التواصل الاجتماعي، التي صارت متَنَفَّسًـــا للتعبير عن الظروف التي يمرّ بها أكثـــرُ الناس، خاصة ما يتعلق بالأقـــدار المؤلمة، والأحوال الاقتصادية الســـيئة. وبثُّ الشـــكوى قد يُخفِّف مـــن الألم، على حد قول الشاعر:

وَلا بُدّ مِنْ شَكْوَى إِلَى ذي مُروءَةٍ

يُواســـِيكَ أَوْ يُسْـــلِيكَ أَو يَتَوَجَّعُ

لكنْ ثمـــةَ طريقةٌ مجرّبة في التعاطي مع الظروف التي تمرّ بالإنســـان، وهي ما يمكن تسميته (التفكير بالموجود)، وهو أسلوب ناجِع ومجرّب، وقد طبّقه العقلاءُ من المسلمين وغيرهم.

وفي القصة المشهورة عن عروة بن الزبير (ت:٩٤هـ) ما يوضح المراد بشـــكل أدقّ؛ فقد ابتُلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وقتٍ واحدٍ بفَقد ولدٍ له، ركَلةَ حصانٌ، فمات، وسرى داءُ الآكِلـــة إلى رجله، فقُطعت! فأتتـــه قريشٌ والأنصار يعزونـــه في ابنِه ورِجله؛ فقال له عيســـى بن طلحة بـــن عبيدالله: أبشر يا

أبا عبدالله، قد صنع الله بك خـــيرًا، والله ما بك حاجةٌ إلى المشي. قال: ما أحسن ما صنع اللهُ إلي! وهبَ لي سبعةَ بنين، فمتعني بهم ما شاء، ثم أخذ واحدًا، وترك ســتةً، ووهب لي ســت جوارح، فمتعني بهن ما شاء، ثم أخذ واحدة، وأبقى لي خمسًــا -يدين، ورجلًا، وسمعًا، وبصرًا- ثم قال: اللهم، لئن كنتَ أخذتَ لقد أبقيتَ، ولئن كنتَ ابتليتَ لقد عافيتَ [1].

فتأمل في كلمات عروة رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذْ نَســب المفقود إلى الموجود؛ فوجد أنه في خير عظيم، فلئن ذهب ولدٌ فلقد أبقى له ســتة، ولئن ذهبت جارحة فلقد أبقى اللهُ له الكثير.

لــو أردنا أن نُعبّر عن هذه المصيبة عــلى طريقة المتذمّرين، لوجدنا أنه سيقارن نفسَه بمن لم يفقد أي جارحة، وبمن لديه أولاد أكثر منه، أو من لم يبتلوا بفَقْد أحدهم! وهذا كله لا يُجدي على صاحبه شيئًا، فلن يُعيد هذا التذمرُ عَجَلة الزمن، ولن يعيد له ولدَه ولا قَدَمَه، مع زيادةٍ في الهمّ والغمّ قد تُذهــب الأجر، وتَجلب الوزر -إن صحبه تســخط- وربما تبع ذلك مشاعر سلبية -من القلق والاكتئاب- تزيد الطينَ بلّة.

إن هذا الأســلوب في التفكــير التفكير بالموجود يحتــاج إليه الأبُ والزوجُ حين يكثر الإلحــاحُ من داخل البيت على شراء الكماليات بدافع التقليد والمحاكاة للآخرين، وذلك بذِكر مــا عندهم، وفقَدَه الآخرون، وليس العكس؛ مستشــعرًا قولَه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يربي أمّتَه على التعامل مع ما يراه أحدُنا من تميّز غيرنا علينا في أمر الدنيا: «**انظروا إلى من أســفل منكم، ولا تنظروا إلى مــن هو فوقكم، فهو أَجــدَر ألا تزدروا نعمةَ الله**

(١) ينظر: (التعازي) للمدائني (ص٥٦).

عليكم»[1]، وهذا كلُّه ليس تهربًا من النفقة، ولكن لكبح جماح الرغبة في الشراء لمجرد الشراء والتقليد، وليس الحاجة.

وهذا الأســـلوب في طريقة التفكير، إنما هو مفيد في التعامل مع أقدار الله المؤلمـــة؛ أما في باب التذكير والتنبيه عـــلى الفضائل الدينية؛ فلا بد أن نعكس الأســـلوب إلى: (التفكير بالمفقود)، ومن الأمثلة التي تُقرِّب هذا المعنى: أن أحد الإخوة أراد أن يتحدث عن فضل صلاة الجماعة؛ فقرَّر أن يغيّر طريقةَ الطرح المعتادة مع أهميتها ولكن هذه المرة بأسلوب (التفكير بالمفقود)، فذكر الفضائلَ المتعلقة بحضور الجماعة، وما الذي يخسره من لم يحضرها؟ ومن جملةِ ما ذَكر:

إذا كان الذي يحضر الجماعةَ يَفضُل صلاةَ الفَذِّ بسبع وعشرين درجة؛ فهذا يعني أن الفذ (يَفقِد) مئة وخمسًا وثلاثين درجة يوميًّا، وقرابة الألف درجة أسبوعيًّا!

وإذا كان الذي يحضر الجماعةَ ينالُه هذا الفضل: «**من غدا إلى المسجد، أو راح**[2]**؛ أعـــدّ اللهُ لـــه في الجنة نُزُلاً**[3] **كلما غـــدا، أو راح**»[4]، فكم نُزُلًا (يفقِد) المتخلفُ عنها يوميًّا؟[5].

---

(١) رواه مسلم (رقم٢٩٦٣).

(٢) أصل غدا: خرج بغدوة؛ أي مبكرًا.

وراح: رجع بعشي، وقد يســتعملان في الخروج مطلقًا توسعًا، وللحديث روايتان يتبين بهما أن المراد بالغدوّ: الذهاب، وبالرواح: الرجوع. انظر: شرح القسطلاني (٢/ ٣٣).

(٣) النُّزُل: ما يهيأ للضيف. انظر: كشف المشكل (٣/ ٤٠٢).

(٤) رواه البخاري (رقم٦٦٢)، ومسلم (رقم٦٦٩).

النُّزُل: ما يُهيّأ للضيف. انظر: كشف المشكل (٣/ ٤٠٢).

(٥) وهذا الفضل فقط لمن غدا أو راح! قال ابـــن بطال: «فما ظنك بما يُعِدُّ له، ويتفضل عليه بالصلاة في الجماعة واحتساب أجرها والإخلاص فيها لله تعالى!» شرح صحيح البخاري لابن بطال (٢/ ٢٨٥).

وإذا كان الذي يحضر الجماعة «**لم يخطُ خطوة، إلا رُفِعت له بها درجة، وحُطَّ عنه بها خطيئة**»[1]؛ فكم سيفوت المتخلِّف عنها مِن رفعةٍ للدرجات وحطٍّ للخطايا؟

وهكذا، يمكن تفعيـــل هذين النوعين من التفكير في نظرتنا لســـائر أنماطنـــا في الحياة، فأنا واثق أن النتائج ســـتكون بـــإذن الله أكثر إيجابية، وأعظم نفعًا.

❋

(١) رواه البخاري (رقم٦٤٧).

لماذا لا تَندب الحسين؟

١٩/ ٢/ ١٤٣٦هـ

سؤال قد يبدو غريبًا! لكن قد تزول هذه الغرابةُ إذا علمتَ أن مِثل هذا السؤال سؤالٌ حقيقيٌّ يطرحه بعضُ الشيعة كلما مرّت مناسبةُ عاشوراء، وجرى حوارٌ مع عامة المسلمين وخاصتهم -من العلماء وطلاب العلم في زمنٍ تيسّرت فيه المحاورةُ والمناقشةُ من خلال وسائل التواصل الاجتماعي.

والأعجبُ من هذا: حين يستنكر بعضُ الشيعة صومَنا لعاشوراء! لأنه بزعمهم أن الصوم ينافي ما ينبغي أن نكون عليه من الحزن لِمَقْتلِ البِضعةِ النبويةِ؛ السِّبطِ الشريفِ أبي عبدالله الحسينِ بنِ عليِ بن أبي طالب، عليه وعلى والده وآل بيته السلام والرضوان، الذي قُتِلَ شهيدًا سنة إحدى وستين هجرية (٦١هـ)، وعلى مَنْ قتله، وأعان على قتله لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعين.

وما دام السؤالُ المذكورُ قد طُرح؛ فليكن جوابنا عنه، وحوارُنا فيه بعلم وعدل وعقل، من خلال الأسئلة الآتية:

عند المسلمين نصوصٌ صريحةٌ صحيحةٌ في الحثّ على صوم عاشوراء؛ شكرًا لله على نجاة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وليس فرحًا بمقتل الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما يلبِّس بعضُ الشيعة هداهم الله للحق، فهل يتركون الصومَ الذي أمرَ به جدُّ الحسين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن مصيبة مقتل الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقعتْ في اليوم نفسه؟!

وأهلُ السنةِ لا يَجِدون تعارضًا بين المناسبتين، بل يقولون: إن مِن كرامة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لأبي عبدالله الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يكون يومُ استشهاده في يوم عاشوراء، وهو اليوم نفسه الذي نجّى اللهُ فيه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وغرّق فرعون؛ ليجتمع للمسلمين فيه عبادتان: عبادةُ الشكر وعبادةُ الصبر، وليقترن ذكرُ استشهاده بذكر أحدِ أولي العزم من الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كما يجمع اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في الوقت شخصًا أو نوعًا من النعمة التي تُوجب شكرًا، أو المحنة التي تُوجِب صبرًا، كما أنّ السابعَ عشر من شهر رمضان كانت فيه وقعةُ بدرٍ، وفيه كان مقتلُ عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأبلغُ من ذلك أن يوم الإثنين في ربيع الأول مولد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفيه هجرته، وفيه وفاته أيضًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والعبدُ المؤمن يُبتَلى بالحسناتِ التي تَسُرُّهُ، والسيئاتِ التي تَسُوءُه في الوقت الواحد؛ ليكون صبَّارًا شكورًا، فكيف إذا وقعَ مثلُ ذلك في وقتين متعددين من نوع واحد؟!

وهنا مِن حقّ الشيعي الباحث عن الحقيقة أن يتساءل: متى بدأ اللطمُ والشقُّ المتعلقُ بمقتل الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟ لن يُسعفَه التاريخُ إلا بأن هذا لم يبدأ إلا بعد سنوات كثيرة.

سـؤال آخر: كلُّ الشيعة يقولون: إن عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أفضل من ابنه، وقد قُتل شهيدًا مظلومًا، وهو خارجٌ لصلاة الفجر في رمضان، فلماذا خُصّ الحسينُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالندب دونه؟

ولماذا لم يَفعل أحدٌ من شـيعة عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شيئًا من ذلك، وهو الذي قُتل قبل ابنه بنحو عشرين سنة؟

ولنرجع إلى الـوراء قليلًا: مات النبـيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو أعظمُ من أصيب المسـلمون بموتـه، فلماذا لم يُقِـم الصحابـةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عليه مأتمًا وعويلًا؟ ولماذا لم يبادر العبـاسُ وابنُه وعليٌّ وأكابرُ آل البيت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في ذلك الوقت إلى اقتراح مثل هذا، وعلى سبيل الاقتراح على الأقل؟

وحـين فُجـع النبـيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بوفـاة جـدة الحسـن والحسـين، أم المؤمنـين خديجـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين، وفُجـع بمقتل عمّه حمـزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لماذا لم يَصنـع لهـم مأتمًـا، ويجمـع النـاس والنسـاء؛ ليُظهِـروا مشـاعر الحـزن عـلى هـذه المصائـب الجليلة؟!

الجواب باختصـار: لأن الله لم يأمر عند نـزول المصائب إلا بالصبر والاسترجاع، فقد ربّاهم القرآنُ على هذا، بل وهيأهم لمثل هذه المصائب، إذ قـال تعـالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦].

ومن الأسـئلة التي مِن حق الشيعي أن يتسـاءل عنها: ماذا فعل هذا اللطمُ للأجسـاد، والشـق للثياب؟ هل أزال كدَرَ المصيبة؟ أم أعاد لنا الحسينَ وآل بيته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؟ أم قضى على الظالمين لهم؟

ولـــه أن يعيد النظرَ، ويتســـاءل أيضًا: ونحـــن في عصر الاتصالات والتواصل الفضائي والتقني: ماذا نتوقع أن يقول شخصٌ يريد الدخول في الإســـلام إذا رأى أمثالَ هذه المشـــاهد؟ فهل نظن -وهو يرى أطفالًا وشـــبابًا صغارًا تســـيل الدماءُ من رؤوســـهم من آثار ضرب السيوف والسكاكين- هل نظن أن مثلَ هذا المشهد سيرغّبهم في دخول الإسلام؟ على الأقل في فهم الشيعي الذي يعتقد أن مذهبه الذي عليه هو الحق، وما سواه هو الباطل!

وختامًا: فقد يَخفى على كثيرٍ من الشيعة، أن عددًا من أئمة السنّة نصّوا على أنّ تَقصّد الاحتفال بهذا اليوم، وإظهار الفرح فيه؛ بدعةٌ منكرةٌ، يقال هذا ليتبين أن الخطأَ خطأٌ، والبدعةَ بدعةٌ مهما كانت جهة صدروها.

رزقنـــا الله بمنّـــه وكرَمه لـــزومَ الحق الـــذي أنزله على نبيـــه وخليله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

حاجز المهنة

٢٥/ ٢/ ١٤٣٦هـ

الانتساب إلى مهنةٍ مِن المهَن -كالطب، والهندسة، والتعليم، والزراعة، وغيرها- قديمٌ قِدَم دبيب أقدامِ البشر في الأرض.

لقد كان الغالبُ على المنتسبين لمهنَتهم الاكتفاءَ بها، والانشغالَ بتطوير ذاته، أو البقاء من رسومها على ما يحقِّق رزقًا له ولأولاده، فلما جاء الإسلامُ نقلَ أهلَه إلى فضاءٍ أرحب، وميادينَ أوسع، جعلتِ الهمّ الأكبرَ الذي يدورُ حولَه الإنسانُ هو همّ الإسلام، مهما كانت مِهَنُهم، وعلى اختلاف مستوياتهم، فلا يحجزهم عن حملِ رسالةِ الإسلام كونهم ليسوا طلاب علمٍ، بَلْه علماء بالشريعة.

بل امتد حملُ هذا الهمّ إلى مَنْ ينشغلون عادةً بخاصةِ أنفسهم، أو أناس وقعوا في بعض المعاصي، فسُجِنوا، ويحضرني هنا مثالٌ مرّ بي في ترجمة الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث يقول: ما سمعتُ كلمةً منذ وَقعتُ في الأمر الذي وقعتُ فيه؛ أقوى من كلمةِ أعرابي كلَّمني بها في رَحبة طَوق، قال لي: يا أحمد، إن يَقتلك الحقُّ متَّ شهيدًا، وإن عشتَ عشتَ حميدًا، قال: فَقوّى

قلبـــي[1]، ولما تكلّم الإمامُ أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن خوفه من فتنة الســـوط، وأنه يخاف ألا يصبر! سمعه بعضُ أهلِ الحبس، فقال: لا عليكَ يا أبا عبدالله، فما هو إلا سَـــوطان، ثـــم لا تدري أين يَقع الباقـــي! فكأنه سُرِّي عنه[2].

وتمتد هـــذه النـــماذجُ المشرقةُ إلى عصرنـــا؛ لنرى شـــبابًا أفاضل من تخصصـــات غير شرعيـــة، تمثّلوا هـــذه الحقيقـــة؛ فســـعوا إلى توظيف تخصصاتهـــم، والمهن التـــي ينتمون إليهـــا في نشر الخـــير، والدعوة إلى الله، ولســـانُ حـــالِ أحدِهم يقـــول: لعلّي أكـــون من أهل هـــذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

ومـــن الأمثلة القريبة: ما فعله بعضُ الشـــباب -في رمضان الماضي- من تســـخير موقع التواصل الاجتماعي (ســـناب شات) للتعريف بمكة المكرمة؛ من خلال حملة سُـــخّرت للنقل الحيّ لشعائر التراويح، ومشهد الطواف، وذلك ترتَّب عليه إسلامُ عددٍ ممن كان يتابع ذلك البث، ومنهم من لم يكن يعرف مكة المكرمة مِن قبْل، فقادته تلك الجموعُ التي رآها في العشر الأواخر إلى السؤال عن الإسلام؟ ولعلّهم اهتدوا بسبب ذلك.

لم يكن ذلك الشـــابُّ والفريقُ الذي معه -ممن تبنّوا الفكرة- مِن حمَلَة الشـــهادات الشرعية، بل كانوا من ذوي التخصصات التقنية، لكنه حبّ الخير، والرغبة في الدعوة إلى الله باســـتخدام هذه الوســـيلة، فلله درّهم، وبارك فيهم، وأكثر مِن أمثالهم.

---

(١) مناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي (ص٤٢٢).

(٢) السابق: (ص٤٢٧).

وفي القطاع الصحي، تَقرُّ العينُ حين تَرى مَن انبرى لدعوةِ الوافدين -من مسـلمين وغيرهم داخل القطـاع الصحي، فهـذا طبيب، وآخر صيدلي، وثالث ممرض، كلهم يتسـابقون إلى التعاون مع مكاتب التوعية الدينية في المستشفيات، فنفع الله بجهودهم كثيرًا، وأنقذ اللهُ بهم فئامًا من النار.

ونجد بعضَ الموفَّقين مـن معلمي اللغة الإنجليزية، يبادرون قبل أن يُسْـألوا، بادَروا بالتواصل مع مكاتب توعية الجاليات؛ ونُصْبُ أعينهم قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فـوالله لأَنْ يُهدَى بك رجلٌ واحـدٌ خيرٌ لك من حُمْرِ النَّعَم**»[1]، فيجتهدون في الدعوة، وإيصال رسالة الحق إلى من ضل عنه، وهمُّ أحدِهم: كم إنسانًا سيدخل الإسلامَ بسببي؟!

وأعرفُ أحدَ الشـباب ممن يعمل في قطاع المقـاولات، جعل دعوة الجاليات همّـه الأكبر، فلما حمل هـذا الهمّ اجتهد في اغتنام كل وسـيلةٍ لدعوتهم، ويقول: أتمنى ألا أموت حتى يُسـلِم على يديّ أكثر من ٣٠٠ ألف كافر، وأظن أن الذين أسلموا على يديه حتى الآن فاقوا عشرين ألفًا.

إنها دعوةٌ لكل مسـلم أن يَحمل رسالةَ الإسـلام ما استطاع إلى ذلك سـبيلًا، وأن يغتنم ما يسّره اللهُ من وسائل لخدمة الدين، فإن كَسِل، فاللهَ اللهَ أن يُؤتَى الإسلام من قِبَله! ولا يكن صادًّا عنه بسوء أفعاله وتصرفاته: «**تكف شرك عن الناس، فإنها صدقة منك على نفسك**»[2]، والله يهدي مَن يشاء إلى صراطٍ مستقيمٍ.

---

(١) رواه البخاري (رقم٢٩٤٢) واللفظ له، ومسلم (رقم٢٤٠٦).

(٢) رواه البخاري (رقم٢٥١٨)، ومسلم (رقم٨٤) واللفظ لمسلم.

دُرّةُ الحُفّاظ

١/٣/١٤٣٦هـ

مخطئ مَن يظنّ أن الانتفاع التام بقراءةِ تراجم الأكابر يحصل بالقراءة العابرة!

إن تاجَ تلكم التراجم: هـي التي يجمعُ أصحابُها بين العلم والعمل، وتطبيقِ ثمرة العلـم، تلمَس ذلك وأنت تقـرأ أخبارَهم، فتهُبّ عليك نسـماتُ صِدقهم من خلال تلك الأسطر والورقات، فكيف بمن عاش معهم، أو لقيَهم؟!

ومِن هؤلاء الكبار الذين تستحق تراجمهم أن تُقرأ أكثر من مرة: الحافظُ العالم العامل المحدّث عبدالغني بـن عبدالواحد المقدسي (ت:٦٠١هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1].

لقد عَرف كثـيرٌ مِن طلاب العلم هذا الحافظ بـ (عمدته الحديثية) الشـهيرة، التي جمـع فيها نحوًا مـن أربع مئة حديـثٍ في الأحكام من الصحيحين، وبعـضِ أفرادهما، وعرَفـوه بحفظـه واطّلاعه، وبعضِ

(١) له ترجمة مسـتوعبة في (ذيل طبقات الحنابلة) لابن رجب (٣/ ١-٥٦) ومنها أفدتُ في هذه الملتقطات من ترجمته.

مصنفاته الســـائرة، لكن ماذا عن الجانب العمَلي في حياته؟ الذي يُترجِم ما كان عليه من علمٍ مُزكّى، يسير فيه على جادّة السلف الذين جمعوا بين العلم والعمل، ولعلي ألخص بعضَ مواقفه تلك في هذه الوقفات:

- دفعُ العُجب: بلغ الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ منزلـــةً عليّة في الحفظ، وله في ذلك قصص كثيرة، وهذا قدْر يشـــترك معه فيه بعضُ العلماء ممن ســـبَقه، ولحقه، إلا أن الموقف الذي يُترجِم الجانبَ العملي عنده، أنه قيل له: لِمَ لا تقرأ الأحاديثَ من غير كتاب؟ فَقَالَ: إنني أخاف العُجْب!

- اســـتفيدوا من غيري: قال أحدُ مترجميه: «إذ صار عنده طالبٌ يَفهم شَيْئًا؛ أمره بالسفر إِلَى المشايخ بالبلاد»، وبعضُ الناس اليوم إذا بلغ في العلم منزلةً قد يتضايق مـــن ذهاب بعض تلاميذه لغيره! وهذا ليس مـــن النصح في شيء -خاصةً إذا ذهب الطالـــبُ ليتلقى علمًا لا يتقنه شيخُه الذي انتقل عنه-.

- مجالسُ تليّن القلـــوب: عُرف الحافظُ بقرب دمعتـــه، وكثرة بكائه في مجالس الحديث، وكان له -إبان إقامة درســـه بعد الجمعة في دمشق- مجالسُ يغشـــاها خلْقٌ كثيرٌ، وكان إذا قرأ الحديثَ بكى، وأبكى، فمن حضر هذه المجالس لا يكاد يفارقها؛ لكثرة ما يحصل له من لين قلبه.

ولما دخل مصر -بعد أن أُخرج من دمشق- عقد مجالسَه الحديثية فيها، فكان النَّـــاسُ يبكون حَتَّى غُشي على بَعْضهم، حتى قال بعضُ المصريين: مَا كنا إلا مثل الأموات حَتَّى جاء الحافظ، فأخرجنا من القبور!

ما أحوج الناس وطلاب العلم إلى هذه الســكينة التي تغشــى هذه المجالس، ويخرج منها أهلُها وقد لانت قلوبُهم!

ولقد تذكرتُ -وأنا أقرأ هذه المواقف- مجالسَ حضرتُها، وســمعتُ أضعافها -مما لم أحضره- لشــيخنا الإمام عبدالعزيز بن باز- رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إذ كانت دموعُه تســيل من تأثره بآية، أو تعليقه عــلى حديثٍ من أحاديث رســول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد كانت تلك الدموع تليّن قسوةً في القلوب، ويستشعر معها الجالسُ في الدرس شــيئًا من معاني السكينة التي تغشى تلك المجالس! ومَن ينسى بكاءه عند سماعه لحادثة الإفك؟ أو قصة بيعة العقبة؟ أو توبة كعب وصاحبيه؟!

لا أدري لمَ ربط بعضُ أهل العلم بين قوة الدروس العلمية وخلّوها مما يليّن القلب، ويستدر الدمع؟! آلجفافُ علامةٌ على قوة الدرس علميًّا؟!

مِن المؤكّد أن الدروسَ ليســت على درجة واحدة من حيث طبيعتها، ولا الشــيوخَ في منزلة واحدة، لكن خلوّ دروس الشيخ التي تبلغ المئات من أمثال هذه المعاني؛ شيء محزن!

- الحفاظ على رأس المال: مما اشــتهر به الحافــظ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ وعُرف عنه: «حفاظه الشديد على وقته، فلا يكاد يضيّع شيئًا من زمانه بلا فائدة»، وفي عصرنا تجدّدت على طالب العلم مشــتّتاتُ الوقت، ومضيّعاتُ الزمن، فما أحراه أن يتضرع لربه، ويســأله الإعانةَ على اغتنام الوقت، والسلامةَ من انفراط زمانه بلا فائدة!

- الاســتمرار في تلقين القــرآن للعامّة: وهذا مــن أعاجيب ما ذُكر في

ترجمته رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإنه لم يترك ذلك مع بلوغه في الإمامة في الدين شـأوًا عظيمًا، تَحمِل مثلَه على الانشـغال بأمور أخـرى، بحيث يتولى هذه المهمة -مهمة التلقين- من هم في طبقة تلاميذه.

بعضُ شـبابنا -وفقّهم الله- ممن هم متأهلون لتعليم القرآن وتلقينه، وليست لديه موانع تسـتحق التأخر عن هذا الشرف، إذا عُرض عليهم التدريس في حلقات التحفيظ؛ يبدون أعذارًا كثيرة، بعضُها لا يقوم على ساق، أفليس لهم في هؤلاء الأكابر قدوة؟!

- مشـاركة العامَّة همومَهم ومصائبَهم: فإنه حين كان بمصر، وقع فيها غلاء، فكان يُؤثِر بعشائه ليالِيَ عدة ويَطوي[1].

ومثل هذه المواقف تؤثّر في العامّة، وتزيد من رصيد العالم في نفوسهم أكثر من دروسه ومواعظه المجرّدة من التطبيق.

- احتسابه على المنكرات: يقول مترجمو الحافظ: «وكان لا يرى منكرًا إلا غيَّره بيده أو لسانه، وكان لا تأخذه في الله لومةُ لائم»، وتلك -لعمر الله- مِـن زينة العالم؛ أن يُرى محتسِـبًا، يُترجـم غيرتَه على محارم الله بالإنكار بحسب القُدرة والاسـتطاعة، وبما يحقِّق المقصودَ الشرعيَّ.

وإن العامّـة لا يزالون يحفَظون للعالم قَدرَه ومكانتَه في قلوبهم؛ ما دام معروفًا بينهم بالاحتسـاب والإنكار، وألا يَقصُر دعوتَه على أحد طرفي النجاة: (الأمر بالمعروف) فحسـب، بل يجمع بينهـما، ويجتهد في تحقيق المصالح الشرعية في أمره ونهيه.

---

(١) الطَّيَانُ: الطَّاوِي الْبَطْنَ. وَيُقَالُ طُوِيَ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا جَاعَ، وَضَمُرَ صَارَ كَالشَّيْءِ الَّذِي لَوِ ابْتُغِيَ طَيُّهُ لَأَمْكَنَ. فَإِنْ تَعَمَّدَ لِلْجُوعِ قَالَ: طَوَى يَطْوِي طَيًّا. مقاييس اللغة (٣/ ٤٢٩).

■ وصية مجرّب: ولتكن آخر الوقفات مع ســـيرة هـــذا العلم الماجد[1]، هذه الوصية التـــي صدرت عن تجربة وذوق، وهـــي وصيّة تُعرَض مضامينُها لكثير مـــن أهل العلم، حيث يقول: «إن مَن رزقه الله خيرًا مِن عملٍ أو نورِ قلب، أو حالـــةٍ مَرْضيَّة في جوارحه وبدنه؛ فليحمد الله عليها، وليجتهد في تقييدها بكمالها، وشكر الله عليها، والحذر من زوالها بزلة أو عثرة.

ومن فقَدَها فليكثر من الاسترجاع، ويفزع إلى الاستغفار والاستقالة، والحزن عـــلى ما فاته، والتضرع إلى ربه، والرغبة إليه في عَودها إليها، فإن عادتْ وإلا إليه ثوابها وفضلها إن شاء الله تعالى».

رحم الله الحافظ عبدالغني، وأكثَرَ في علماء المسلمين من أمثاله، وجمعنا به في دار كرامته.

❋

(١) الماجِدُ: الحَسَنُ الخُلُقِ، السَّمْحُ. القاموس (ص٣١٨).

مشروع (العالِم المتفرّغ لنشر العلم)

٧/ ٣/ ١٤٣٦هـ

مما يستوقف القارئ في ترجمة أبي عبيد القاسم بن سلّام رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما رواه الخطيب البغدادي في (تاريخه) أنه حين صنّفَ أبو عبيدٍ كتابه (غريب الحديث) عُرِضَ على الأمير عبدالله بن طاهر، فاستحسنه، وقال: إن عقلًا بعث صاحبه على عملِ مثلِ هذا الكتاب لحقيقٌ ألا يُحْوَجَ إلى طلب المعاش، فأجرى له عشرة آلاف درهم في كل شهر[1].

وقريبٌ من هذا، قولُ عبدِالله بن المبارك -حين كان يتّجر في البزِّ-: لولا خمسة ما اتجرت، فقيل له: يا أبا محمد، مَن الخمسة؟ فقال: سفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، والفضيل بن عياض، ومحمد بن السماك، وابنُ عُليّة، قال: وكان يخرج فيتّجر إلى خراسان، فكلما ربح شيئًا أخذ القوتَ للعيال ونفقة الحج، والباقي يَصِل به إخوانَه الخمسة.

وابنُ المبارك -أحدُ الأئمة- كان مستغنيًا بتجارته، ولو شاء لتفرّغ بقيّة حياته للتحديث والفتيا، لكنه آثر أن يستمر في تجارته؛ ليقوم بكفاية إخوانه من العلماء الذين سمّاهم.

---

(١) تاريخ بغداد (١٤/ ٣٩٢).

إنها نـــماذج توحي بأن فكـــرة كفايةِ العـــالِمِ، وتفريغـــه لتعليم العلم وبثّـــه في الأمة كانـــت حـــاضرةً في نفوس أهـــل الفضل مـــن الأمراء والعلـــماء؛ لما لذلك من الأثر العظيم في العـــالم وطلابه، وفي الأمة كلها.

والمشـــاهَد أن عددًا كبيرًا مـــن العلماء، تمضي زهرةُ شـــبابه وبداياتُ حياتـــه العلمية بـــين الرغبة في الطلـــب، وهمِّ توفير لقمـــة العيش التي يســـتغني بها عن الخلق، حتى إذا ما نضج، واشـــتد عـــودُه، واحتاجت الأمةُ لعلمـــه؛ إذا بقواه البدنية قد كلّت بســـبب الوظيفـــة، التي وإن لم تُثْقـــل كاهلَ البـــدن في كل الأحيان، إلا أنها تُشـــغِل الذهنَ على الأقل.

لقد حدّثنا التاريخُ عن علماء كُثر، لم يستطيعوا التفرغَ لبثّ العلم حتى اســـتعفوا من وظائفهم، منهم: القاضي والعالم المالكي الشهير أبوبكر بن العربي، حيث قال عنه مترجمه: «ثم اســـتعفى عن القضاء، فأعفي، وأقبل على نشر العلم وبثه»[1]، فتأمل في قوله: «وأقبل على نشر العلم وبثّه»، إذْ لم يأتِ إلا بعد الاستقالة.

وهذا يقودنا إلى الإجابة عن السؤال الذي يطرحه بعض الفضلاء: إذًا مَنْ يتصدى للقضاء؟ وللتدريس في الجامعات؟ ومدارس التعليم العام؟

والجواب أننا حين ندعو إلى تبنّي (مشروع العالم المتفرّغ) فهذا بالتأكيد يعنـــي أنه لا يفرّغ أيُّ أحـــد، بل يُفرغُ من عُرِف بالعلـــم وطلبه، وبثّه في الناس، وشـــهرة مثل هؤلاء لا تخفى، ويبقى في تلك الوظائف المذكورة من ليس بدرجة هؤلاء العلماء.

---

(١) (الصلة في تاريخ أئمة الأندلس) لابن بشكوال (ص١٤٤).

وعلى المؤسسات المانحة أن تسعى في إيجاد أوقافٍ تليق بوظيفة هؤلاء العلماء، وأن تستشـــير كبار أهل العلم في الضوابط والشروط التي ينبغي أن تتوافر فيمن يســـتحق ذلك، ويسبق هذا: وضع الشروط التي تضبط الأمر، وتحميه من الانفراط، أو التســـوّر عليـــه، فيأخذه من ليس أهلًا، ويحرمـــه من هو أهلٌ، على أن تكون هذه الأوقاف تغني أولئك المتفرغين وتكفيهم، وتراعي ما يليق بحالهم علميًّا واجتماعيًّا، وبما يرفع المنّة عنهم، فطالب العلم، بله العالم لن يرضى بأن يعيش مقتاتًا على مالٍ من شخص بعينه -مهما كان قدره-، بل إذا كان ضمن مشروع وقفي كبير، فهو أدعى لقبوله، وتاريخ المدارس العلمية[1] أكبر شـــاهد على عراقةِ هذا النوع من المشروعات الوقفية.

لقد كنتُ أتساءل منذ مدّة ليست بالقريبة: ماذا لو وجد في بلادنا علماء متفرغون لنشر العلمِ وبثّه؟ بحيث لا تخلو منهم أوقات اليوم الخمسة، كما كان حال بعض العلماء قبل انتشار الوظائف الحكومية وغير الحكومية؟

ولو نظرنا في نمـــوذج قريبٍ، لأثَرِ تفرّغ العالم عـــلى إنتاجه المكتوب والإنتاج المتمثل في الطلاب؛ فهو لعلَمٍ من أشهر علماء البلاد -في القرن الماضي-: شـــيخِ مشـــايخنا العلامةِ عبدِالرحمنِ بنِ ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت:١٣٧٦هـ)، فقد كان يجلـــس لطلاب العلم في غالب أوقات اليوم؛ لأســـباب من أهمها: أنه كفي مؤنة رزقه، فتخـــرج به علماء كبار، نفع الله بهم الســـاحة العلمية، منهم: شيخنا ابنُ عقيل (١٤٣٢هـ)، والشيخُ ابن بسّـــام (ت١٤٢٣هـ)، وشـــيخنا ابنُ عثيمين (ت١٤٢١هـ) وغيرهم،

(١) ينظر في تاريخ كثير منها: (الدارس في تاريخ المدارس) للنعيمي (ت٩٢٧هـ).

رَحِمَهُمُ اللَّهُ تعالى جميعًا، وهذا مما يزيدنا قناعةً بأهمية المبادرة والمسارعة في هذا المشروع العظيم.

واليومَ في بلاد الهند وبعض بلاد الإسلام من هذا النوع من العلماء كثير، صاروا -بسبب تفرغهم- مقصدًا لطلاب العلم، يسافرون إليهم، ويقرأ الطالب عندهم في شـــهر ما لا يقرؤه عند غيرهم في ثلاثة أو خمسة أشهر.

لئن كانت الكفايةُ في المعيشة في زمنٍ مضى تحصل بقليل من المال؛ فإن الحال اليوم مختلفة، بسبب الغلاء المتزايد، وكثرةِ متطلبات الحياة، وازديادِ مساحةِ التواصل مع الناس بدنيًّا وتقنيًّا، وسهولةِ السفر والتنقل من وإلى العلماء وطلاب العلم الكبار، فمراعاة ذلك مهمة، ويحســـن أن ينظر في توفير السكن الذي يؤوي قاصدي هذا العالم من طلاب العلم.

إن حقًّا على أهل الثـــراء الأخيار أن يبادروا بإطـــلاق هذا النوع من المشروعات، فهو من أعظم المشروعـــات وأجلّها، والأثرياءُ -وهم كُثُرٌ بحمـــد الله- أولى بتفريغ هؤلاء العلماءِ، وأحـــقُّ بالحرص من أهل الفن والكرة عـــلى تفريغ الفنانين واللاعبين، وبالمبالغ الطائلة ســـنويًّا، لأجل اللهو واللعب!

وبعدُ: ففي الســـاحة علماء وطلاب علم كبار، لو فُرِّغوا لبثّ العلم، وكُفوا مؤنة الرزق؛ لصاروا قبلةً لطلاب العلم من أقطار الدنيا، ولســـان حال هـــؤلاء العلماء: لا شيء أحبُ إليّ من نـــشر العلم، والتصدي لبثّه، ولكن... فمنْ ينال شرف السبق، وعظيم الأجر؟

مواقف في الطائرة (١ / ٢)

١٣/ ٣/ ١٤٣٦هـ

مما يُقال، ويُؤثَر من الحِكَم: «السفر يُسفِرُ عن أخلاق الرجال» ولئن كان هذا يَظهر في الرحلات الخاصة، التي يجتمع فيها عددٌ قليلٌ في سيارة واحدة، وتمتد رحلتُهم بضعةَ أيام؛ فماذا عن رحلات الطائرات التي يجتمع فيها عددٌ كبيرٌ في سويعات مؤقتة، لا يختارهم الإنسانُ، مع تنوعٍ عجيبٍ في مشاربهم وثقافاتهم! كما يظهر هذا جليًّا في الرحلات الدَّولية.

لعل هذا النوع من السفر يكشف عن ثقافات وقِيَمٍ لدى الركاب، ويظهر ذلك واضحًا في طريقةِ تعاملهم، وفي سلوكهم في أثناء انتظار الركوب في الطائرة أو بعد تبوّئهم مقاعدَهم فيها، ويظهر في اغتنامهم لأوقاتهم، وفي غير ذلك.

ثمّة مواقفُ أو صورٌ تتكرر في أمثال هذه الرحلات، قد يكون في ذِكرها والتعليق عليها شيءٌ من الفائدة، خصوصًا وكثيرٌ من الناس قد تمرُّ به، فلعلها تكون عونًا على استثمارها.

ومن تلكم المواقف التي وقعت لي، أو شاهدتها بنفسي:

الموقف الأول: في رحلـــةٍ دوليةٍ تمتد قرابة ســـبع ســـاعات، أيقظني صاحبـــي قبيل الفجر من أجـــل المبادرة للوضوء قبـــل ازدحام دورات المياه اســـتعدادًا للصلاة، ومـــا لفت النظر، ونحن ذاهبـــون للدورات: مررنا بالمصلى الموجود في الخلف، فإذا بامرأة تصلي، دخلنا، وخرجنا من وضوئنا، وما زالت المرأةُ تصلي! فإذا بها إحدى المضيفات! علَتْنا الدهشةُ، وغَشِيَنا شيءٌ من الإكبار لهذه المرأة!

هنا رأى صاحبي اهتبالَ هذه الفرصـــة ليُثني على عملها، ويدعو لها بالثبات، وأن يرزقها اللهُ عملًا آخر أبعـــد لها عن مواطن الرجال، فكان تأمينُها يَصِل للسمع من مسافة ليست بالقريبة.

إنه موقفٌ يكشـــف لك أن في هؤلاء الإخـــوة والأخوات العاملين في هذه المجالات مَنْ يحمل بين جنبيه قلبًـــا طيبًا، وتدينًا جيدًا، وإن كان مظهـــرُه قد لا يوحِي بذلك، لكن قد يكون اضطرّه طلبُ المعاش إلى مثل هذه الوظيفة التي لا تخلو من محاذير، خاصة في العنصر النســـائي -وهذا ليس تبريرًا! بل هو توصيف للحال-، فما أجمل إحســـانَ الظن! واغتنامَ الفُرَص في الدعاء لهم، وتذكيرهم بالأسلوب المناسب.

الموقف الثاني: في إحـــدى الرحـــلات الدولية لفـــت نظري حالُ راكِبَين: أحدهما بيده كتاب يقرؤه، وآخر يقلّب طرْفه في ســـقف الطائرة، ومتابعةِ الغادي والرائح من الركّاب ومضيفي الطائرة! لم تنتهِ مدّة الرحلة -ومدتها قرابة ســـاعتين ونصف الساعة- إلا وقد أنهى صاحبُ الكتاب كتابَه، وصاحبُنا ما زال على حاله! وما أكثر أشباهَه!

إنهما نموذجان يحكيـــان أثَر ثقافةِ اغتنام الوقت، واســـتثماره بالمفيد،

وهذا لا يعني أن نطلب مِن الناس أن يكونوا جميعًا قرّاءً! ولكن من الغبن البيّن أن تمضي الســـاعاتُ دون فائدة، فإن لم يكن للمسلم ميل للقراءة في الكتاب؛ فليقرأ شيئًا من القرآن تشهد له به تلك المواضع -وقد تيسر حملُ القرآن بواســـطة هذه الأجهزة بشكل لم يَســـبق له مثيل- أو ليغتنم ذلك بركعتين، أو بالدعاء، فدعاء المســـافر له ميزة؛ لعل دعوة في تلك الأجواء تُفتح لها أبوابُ الســـماء، أو بالتســـبيح والتهليل والتحميد والتكبير، أو يغتنمه بالتفكير للإســـلام أو مصالح المســـلمين، أو بغير ذلك من صور الاغتنـــام، ومَن كان الهمُّ عنـــده فلن يعدم حيلةً، ولن يعدم وســـيلةً من وسائل اغتنام الوقت، وما أكثرها!إن التربية على اغتنام الوقت في النافع المفيـــد ثقافةٌ تبدأ من الصغر، حيث المحضن الأول للتربية: البيت، الذي يتلقى فيه الأبناءُ دروسًا عمليةً في أمورٍ شتى، لعل هذا من أهمها.

وللحديث صلةٌ إن شاء الله، بمواقف أخرى.

مواقف في الطائرة (٢ / ٢)

١٩/ ٣/ ١٤٣٦هـ

سبق أن ذكرتُ في الجزء الأول من هذا المقال -مواقف في الطائرة (١/ ٢)- موقفين، وأتمم في هذا المقال بعضَ المواقف التي أرجو أن يكون في ذكرها عظةٌ وعبرةٌ.

الموقف الثالث: أقلعت الطائرة -في العام الماضي ١٤٣٥هـ- من مطار دبي متجهةً إلى مطار القصيم، وكان المتوقَّع وصولها في غضون ساعتين تقريبًا، لكن حين اقتربت الطائرةُ من مطار القصيم، كانت السماء ملبّدةً بالغيوم، والضبابُ نزل إلى مستوى قريب من الأرض، وكان قائد الطائرة يحاول الهبوط مدةً ليست بالقليلة، فلم يستطع! قابلَ هذا الهبوطَ ارتفاعُ وتيرةِ القلق لدى عدد كبيرٍ من الركّاب -بسبب الأحوال الجوية التي نمرُّ بها- فلُغة العيون لا تَكذِب، وقسماتُ الوجوه تتحدّث، وهذه وتلك أصدق مِن أيِّ حديث، وأبلغ من كل لسان!

تلتفتُ يمنةً ويَسرةً؛ فترى الوجوه -على اختلاف أجناسها وأحوالها- تتفق على لغةٍ واحدة: هي لغة الجسد... هي لغة الفطرة... ولم أجد في تلك اللحظات لغةً أصدق من تلك اللغة -لغة الفطرة-، التي تستشعرُ

معها أن كلَّ الأسـباب انقطعت، وكلَّ الوسـائل قد فَقَـدت فاعليتَها وجدواها، فلم يبقَ للروح إلا أن تتوجّه بنداءِ الفطرة: يا الله، يا الله، يخفقُ بها القلبُ، ويتحرك بها اللسـانُ، والإنسان يشعر أن الله يسمعه، ويعلم حالَه، ويُدرك معاناته!

إنهـا لحظاتٌ إيمانيةٌ عجيبـةٌ، لا يمكن وصفها! لحظـات يُدركُ فيها الإنسانُ عظيمَ أثر التوحيد، وأثرِ الفطرة حين تَسلم من الملوِّثات!

تأمّل الفرق بين قلـبٍ يتوجّه لربه في مثل هذه الحـال، ويناديه نداءَ الغريق في لجّةِ البحر، وبين من يستغيث بالولي الفلاني أو الشيخ الفلاني! إنها حـالٌ مؤلمة -والله- ويبلغ معها الأسـى مبلَغَه حـين ينحطُّ هؤلاء المسـتغيثون بغير الله إلى دَرَكٍ أسـفل من حال المشركين، الذين قال الله عنهـم: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾[العنكبـوت:٦٥]، فهم مع شركهم لا يَدعون غير الله في الشدة، فكيف بمنتسبٍ للإسلام؟!

إنهـا لحظاتٌ يُدرك فيها المؤمنُ شـيئًا من معـاني قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾[البقـرة: ١٨٦]، ويستشعر فيها معنى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ﴾[الحديد: ٤].

لم أتذكر في هـذه الأثناء إلا شـيئين: تقصيري في حـقّ ربي، وذريةً صغارًا أخـاف عليهم الضَّيعة! في مشـاعر حاولتُ فيهـا تجديد عبادةِ حسـن الظنّ بالله، مع مشـاعرَ أخرى تذكرتُ فيها كم هي كبيرةٌ قلوبُ آبائنا وأمهاتنا! ولهَجَ لسـاني بترديد قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾[الإسراء: ٢٤]!

وقلتُ في نفسي: إن قلبَك الذي تذكّر ذريتَه في هذه الحال، هو نفســه قلبُ أبيك وأنت صغيرٌ بل وأنت كبير، فكيف هو قلبُ الأمّ يا ترى؟ ثم انتزعتُ نفسي من هذا الخوف والقلق العارض؛ لأقول: يا هذا، إن ربك أرحم بــك وبذريتك من رحمتك بأولادك، ورحمــةِ والديك بك! فالزم الدعاء، وأكثِر من اللهج بالذكر والثناء.

لم يقطع هذهِ المشاعرَ إلا صوتُ أحدِ ملاحي الطائرة حين أخبرنا أننا سنعود إلى مطار الملك فهد بالدمّام؛ لأنه أقرب مطار يمكننا النزول فيه؛ انتظارًا لما تسفر عنه الأحوال الجوية في مطار القصيم، وبقينا أكثر من تسعين دقيقة داخل الطائرة، في حالٍ اختلط فيها السرورُ بالحزن، والصفاءُ بالكَدَر، فالسرور بانقشاع الغمّة وهبوطنا بسلام في الدمّام، والكدرُ حين رفض الطاقم نزولنا إلى المطار -لنتدبر أمرنا- لاعتباراتٍ نظامية.

أقلعت الطائرةُ متّجهة إلى مطــار القصيم، وقائدُ الطائرة يقول: إذا لم يتيسر النزول في القصيم؛ فستعود الطائرةُ إلى دبي، حيث وجهتها الأولى، ولا خيار غير هذا! هنا ساوَرَنا القلق -لكن بشكل أقل مما سبق- بسبب عدم رغبتنا في رجوعنا إلى دبي؛ لأن هذا يعني بقاءَنا نصفَ يومٍ على الأقل هناك، وسيترتب على ذلك تَبعات لا تَخفى.

عدنا مرةً أخرى إلى الدعاء والتضرع بأن ييسّر اللهُ النزول -على الرغم من بقاء الغيوم والضَّباب لكن بشــكل أخف-، وتــمّ الأمرُ بحمد الله، ونزلنا وكأننا وُلِدنا من جديد، بعد أن تلقّينا درسًا إيمانيًّا عظيمًا، عِشنا فيه ألوانًا من المشــاعر، وذكّرَنا مصيرًا نغفل عنه كثيرًا، هو بحال هذا السفر أشــبه، فما نحن ههنا إلا في محطة مؤقّتة، ننتظر متى يأتي أجلُنا لننتقل إلى

محطّتنا المقبلة وهي الحياة البرزخية- ثم إلى المحطّة النهائية، في دار الجزاء، جعلها اللهُ جنانًا من الفردوس، لي ولوالديّ ومشايخي، وأحبابنا، ومن له حقٌّ علينا.

وأنـــا أُحدّث بهذا الموقف أحدَ أحبتي؛ حدّثنـــي أن موقفًا مقارِبًا لهذا -بل أشـــدُّ- وقع له؛ اضطربت فيه الطائرةُ، واضطربت معها مشـــاعرُ الركّاب، وسادت مشاعرُ الذهول والقلق على الركاب، إلا أن ثمة راكبًا كأنه يعيش في عالَمٍ آخر، فسُئل عن سرّ هذه الطمأنينة التي يعيشها؟ فقال: الحمد لله! فإني لا أتذكّر أنّني ظلمتُ أحدًا من الناس، وما بيني وبين ربّي، فإني إن متُّ أفضيتُ إلى مَن وسعت رحمتُه كلَّ شيء! الله أكبر! نِعم العُدّةُ للموتِ هذه: سلامةٌ من حقوق الخلق، وحسنُ ظنٍّ بالله.

إن علينا ألا ننتظر مثل هـــذه الدروس -التي نكرهها بفطرتنا- حتى نعود إلى الله، بل علينا أن نســـتقيم على الطريـــق، ونتخفّف من الذنوب، فبئس الزادُ هي، ومن أشـــدها: ظلم الخلق في أعراضهم وأموالهم، حتى إذا جاءنا أجَلُنا؛ كان إحسانُ الظنِّ حينها في محلِّه.

وفي الجملة، فأمثال هذه المواقف يســـتفيد منهـــا العاقلُ في تصحيح المســـار، وتقويم النظر، ورحم اللهُ ابنَ عيينة الذي كان يتمثل بهذا البيت كثيرًا:

إذا المـــرءُ كانـــتْ لـه فِكـــــرةْ

ففـي كـلِّ شـــــيءٍ لـه عِـبرةْ

اسمٌ مستعار

٢٥/ ٣/ ١٤٣٦هـ

دأَبَ بعضُ الشعراء والكُتّاب والمغرّدين على الكتابة باسم مستعار في المنتديات ومواقع التواصل؛ بغية السلامة من النقد اللاذع في أول التجارب، أو خوفًا من الفشل، أو لغير ذلك من الأسباب، وهذا مقبولٌ ومفهوم إذا كان الإنسانُ يريد أن ينشر بعضَ القصائد أو المقالات ذات البُعد الاجتماعي أو التربوي، لكن ما الذي يدعو مَنْ يتكلم في قضايا الأمة الكبرى، أو يقوم مقامَ مَن يوجّه الآخرين لذلك؟!

إن حساسيةَ الموضوعِ، أو جرأةَ الفكرة لا تحْتملُ التخفّي، ولا يُقبل فيها التستُّر في هذه المقامات، فمن نصّبَ نفسه لهذه الميادين؛ فعليه أن يكون شجاعًا، ويتحمل تَبِعةَ كلمته، فالكلمة أمانةٌ، والقيادةُ العلميةُ أو الفكريةُ تبعةٌ ومسؤوليةٌ عظمى؛ لا يمكن أن تُربط بشخصيات مجهولة!

وبعضُ الناس يهوّن من ذلك بقوله: الأهمّ هنا هو الفكرة، وهذا ليس بدقيق؛ فمعرفة المتحدِّث -الذي نَصب نفسه للتوجيه- لا تَقلُّ أهميةً عن معرفة حقيقة فِكره، وفي معرفة الاسم فوائد تختصر كثيرًا من السجالات التي لا يخلو منها هذا النوع من الأطروحات.

والغالب أن مَن يكتب، وينشر باسم مستعار، سيعيش مختفيًا، ويكتب مختفيًا، ويموت مختفيًا! فيذهب ما يطرحه -إن كان مفيدًا- ويُنسب إلى مجهول! ومَن ولجَ عالم المخطوطات؛ أدركَ ما قيمة المخطوط المجهول عند أهل الاختصاص!

إن مِن أخطر مواضع هذا النوع من (التستر) حينما يَنبري أناسٌ للحديث في القضايا الكبرى والمعقّدة، ذات الأبعاد الشرعية أو الفكرية أو السياسية، أو بها جميعًا، فينصب نفسَه خَلْفَ معرّف على مواقع التواصل؛ ليوجّه الشبابَ، ويَصوْغ عقولَهم، وهم -لفرط حماسهم- ينساقون، ولا يَسألون عن اسمه، ولا عن تاريخه العلمي أو الفكري أو السياسي، بل يروّج هؤلاء المتستِّرون مقولةَ حقٍّ يُراد بها تمرير بعض الأفكار الغالية أو الجافية، ثم يقول: دعك من اسمي، وانظر إلى كلامي!

ومما قد يَخفى على بعض الشباب -الذين ينجرفون خلف هذه المعرّفات المجهولة- أنها قد تُدار بأيدٍ استخباراتية محترفة، لديها أجندة معيّنة للتغرير بالشباب والفتيات، ودَفْعهم إلى مواطنَ ملتهبةٍ، أو أماكن اشتعلت فيها نارُ الفتنة، وربما ظهرت بصورٍ تَستدرُّ العواطف، وتستهوي الناظرَ لها؛ فيقعون فريسةً وهم لا يشعرون.

ولئن كان التخفي باسم مستعارٍ مقبولًا في قضايا الأدب، أو الاقتصاد؛ فلا يمكن قبولُه في قضايا الشرع والفتيا، وقضايا الأمّة المصيرية، فالله تعالى حينَ أمرَ بالسؤال عند المشكلات؛ أمر بالرد إلى أهل العلم المعروفين به: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]، ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ

يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾[النساء: ٨٣]، ورحم الله عمر بن عبدالعزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين قال: «إن العلم لا يَهلك حتى يكون سِرًّا»[1]، ومن صور الاستسرار به: الكتابة في هذه الموضوعات باسم مستعارٍ مجهولٍ.

إن الكتابة بالاسم الصريح تعني: تحمّل المسؤولية، وأمانةَ الحرف والكلمة، بل وأدعى لاحترامه، وتقدير وجهة نظره مِن قِبَل المخالفين -بلْه الموافقين- وأما السفهاءُ فلن يردعهم عن الردود الفجّة اسمٌ مستعارٌ ولا عالمٌ جليلٌ له قدْره ومكانته، والله المستعان.

❋

(١) رواه البخاري (١/ ٣١) قبل الحديث رقم منة.

لحظات الاحتضار
بين حَيرةِ المتكلمين.. ويقينِ العجائز

١/ ٤/ ١٤٣٦هـ

شيّعْنا في الأسبوع الماضي امرأةً تجمعني بها آصرةٌ من قرابة ومصاهرة، وليست هذه المقالة في الحديث عنها -مع أنها تستحق رَحِمَهَا اللَّهُ- لكنه حديثٌ ينطلق من بعض مواقفها؛ ليعبِّر عن نموذجٍ يتكرر في أترابها من كبار السنِّ رجالًا ونساءً.

عُمِّرَتِ المرأةُ المذكورة نحو مئةِ عام، وفي أواخر حياتها اعتراها ما يعتري كبيرَ السنّ مِن ضعف، فكانت تسمع من أبنائها الدعاءَ المعتاد بطول العُمُر، ونحو ذلك، فكانت تقول: «يكفي ما عِشْنا... لقد اشتقتُ للموت»! وتُتَمْتِم بكلماتٍ تُشعِرك بالشوق للقاء الله.

هذه التمتمات المعبِّرة عن الشوق للموت، ظهرتْ جليًّا وبوضوح عند نزول الموت -كما حدّثني ابنُها- فإنها لما ضَعُف تنفّسها في الساعات الأخيرة، وأرادوا الذهاب بها إلى المستشفى؛ كانت تردد هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾[الجمعة: ٨]، فلما نزل بها الموتُ، لم تزِد على أن قالت: «هلا بالله.. هلا بالله.. هلا بالله! أشهد أن البعثَ حقٌّ»، ثم فاضت روحُها رَحِمَهَا اللَّهُ!

إنها لحظات لا يمكن التمثيل فيها أبدًا، بل المتحدّث الرئيس فيها هو القلبُ الذي كان يعيش أجملَ لحظاته، وهو يُدْبِرُ عن هذه الحياة المنغِّصة؛ ليُقبِل على فواتح الرحمة الإلهية، نقولها إحسانًا منّا للظنّ بالرب الكريم الذي كانت تعبدُه هذه المرأة، وأمثالها من المؤمنين الموقنين بل المشتاقين للقاء الله.

يحدّثني ابنُها أنها في تلك الليلة -التي فاضت فيها روحُها قرابة الساعة الثانية عشرة والنصف ليلًا- قرأتْ بعـــد المغرب الأذكارَ كاملةً، ومنها: ســـيد الاســـتغفار، الذي قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن كلـــمات هذا الدعاء العظيـــم: «**مَن قاله من النهار موقنًا به، فماتَ من يومِه قبلَ أن يُمْسيَ؛ فهو مـــن أهلِ الجنةِ، ومَنْ قالَه من الليلِ وهو موقـــنٌ به، فماتَ قبلَ أن يُصبِحَ؛ فهوَ منْ أهلِ الجنَّةِ**»[1].

هذا النوع من كبار الســـنّ، لم يدخلوا يومًا مدرسةً يتعلمون فيها، وما جلســـوا بين يَدَي معلّمٍ في الكتاتيب، لكنّهم رضعـــوا معاني اليقين عبر كلماتٍ يسيرة تلقّوها في صِغَرهم من والديهم، وافقت فطرةً نقيّة لم تتلوث بشيءٍ من نواقض الفطرة ونواقصها، ولا عبثِ الفكر، بل كانت حياتهم عامرةً بحب الله ورســـوله، والقيامِ بأنواعٍ مِن العباداتِ البدنية واللسانية والماليـــة، التي يُرى أثرُها في بوارِق السرور الذي لا تُخطئه العينُ والأذن، سواءٌ في فلتات اللسان، أو على صفحاتِ الوجه، على الرغم من المصائبِ التي تمرّ، والمنغصات التي لا تخلو منها هذه الحياة.

لقد طاف بي طائـــفٌ -وابنها يحدثني عن خاتمة أمّـــه، التي لها نظائر كثيرة- من أخبار العلماء الذين خاضوا في علوم الفلســـفة والكلام، ممن

(١) رواه البخاري (رقم٦٣٠٦).

عاشـــوا لحظاتِ الوداع الدنيوي، وختامَ المطـــاف في هذه الحياة، وكيف اتفقتْ كلماتُهم على الحيرة، والقلق، والرغبةِ في الموت على دِين العجائز، الذي لم يتلوث بهذه العلوم التي عَظُم ضرَرُها.

هذا أبـــو المعالي الجويني يقـــول في آخر حياته: «لقـــد خضتُ البحرَ الخِضَمَّ، وخلّيت أهلَ الإســـلام وعلومَهم، ودخلتُ في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته؛ فالويـــل لابن الجويني! وها أنا أموت على عقيدة أمي، ويُروَى أنه قال: على عقيدة عجائز نيسابور». وقال مرةً لأصحابه: «لا تشـــتغلوا بالكلام، فلو أني عرفتُ أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلتُ به»[1].

وهذا الفخر الرازي يقول -بعد صولات وجولات في علم الكلام-: «مَن التزم دِين العجائز فهو الفائز»[2].

واليـــوم تَعود المطالبةُ لســـلوك طريقةِ هؤلاء -الذيـــن جرّبوا مَرارةَ البعدِ عن العلومِ الصحيحة- لكن باســـم الحرية الفكرية، والاستقلال في النظر، والاطلاعِ المطلق على تراثِ الآخرين، دون تمييزٍ أو تمحيصٍ، أو تفريقٍ بين قادرٍ على التمييز مِن غيره!

وإنّ أولَ مَن ســـيكتوي بنارِ هذه الدعـــوى المطلقة والمجرّدة من كل قيْد: هم الداعون أنفســـهم -إن لم يتداركهـــم الله برحمته!- فهل يريدون تكرار تجربة الجويني أو الرازي؟! أخشـــى أن يموتوا قبل أن يَستدركوا!

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٧٣)، و(بيان التلبيس) كلاهما لابن تيمية (١/ ٤٠٧).
(٢) لسان الميزان (٤/ ٤٢٧).

فضلًا على تحمّلِهم أوزارَ مَن ضَلوا، أو شـــكّوا في محكماتِ دِينهم بسبب دعواتهم غير المنضبطة..!

فاللهم، موتًا على الإســـلام والسنة، موتًا يمتلئ القلبُ معه شوقًا إلى لقائك يا أرحم الراحمين.

الكرسيّ

٧/ ٤/ ١٤٣٦هـ

هذه الآلةُ التي اخترعها الإنسانُ قديمًا ارتبط اسمُها -في العصور المتأخرة- بالمنصب العالي غالبًا، وما مِنْ شخصٍ يَصِل إلى كرسيٍّ إلا بعد ذهابِ مَنْ قبله، فتلك سنةُ الله في هذه المناصب!

والمفارقة العجيبة في هذا الكرسي -ومع معرفة الجميع بسنة الله فيه- أن الأكثر تُصيبه السَّكرة إذا علاه، ويَظن أنه كالجبل الراسي الذي لا تُحركه رياحُ التغيير! فهل لهذا الاشتراك القويّ بين أحرف (الكرسي) و(السَّكرة) أَثَر؟ ربما يجمعها أنّ مَن ذاق لذّته أدْمَن عليه، كما قال ابن القيم -في حقّ عُبّاد الكراسي-: «فإن الرياسة سَكْرَةٌ كسكرة الخمر أو أشدّ، ولو لم يكن للرياسة سَكرة لما اختارها صاحبُها على الآخرة الدائمة الباقية»[1].

وللكرسي في نصوص الوحيين حضورٌ واضح، يجمعها: التحذيرُ من الاستشراف لها، والتطلّع للجلوس عليها، وأنه من تطلّع لها وُكِّل إليها،

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٣٢).

ومن بلغها دون تطلّع أُعِين عليهـــا، وأنها لا تَصلح إلا لمن جمع شرطَي: القوة والأمانة، وما سوى ذلك «**فنِعم المرضعة، وبئست الفاطمة**»[1].

متى ما شـــعر صاحبُ (الكرسي) الذي رشّـــحه مَن فوقه أنه موظفٌ يخدم المســـلمين بمجرد جلوســـه، لا أنه فرصةٌ للتكسّب، أو التعالي على الخلق، والاحتجـــابِ دون حوائجهم، وأنه لم يجلس عليه إلا بعد ذهاب مَن قبله؛ متى شـــعر بذلك، هان عليه الأمر، بل وجد لذّةً في أداء ما أُنيط به، وراحةً عندما يقال له: انزل عنه ليَحُل بدلك.

ومتى ما تحوّل (الكرسيُّ) إلى مصالح خاصة، وغفلةٍ عن كونه وكيلًا عن الأمة عندما جلس على هذا (الكرسي)؛ فهذا عنوان الشقاء والبؤس المعجّل، وأوّل أوان حسراته يومَ نَزْعِـــه منه، وما يعقبُ ذلك من امتلاء قلبه حزنًا عـــلى ما فاته، فضلًا عـــلى ما ينتظره عند الله من حســـاب إذا اجتمعت الخصومُ عند من لا تَضيع عنده مثاقيلُ الذرّ!

ومِن مظاهر الأســـى المعجّـــل لأصحاب الكـــراسي المعزولين بغير رضاهم: فرحُ الناس بســـقوطهم من تلك الكراسي، وهي -لعمر الله- فضيحـــةٌ دنيويةٌ، فكيف بيوم العرْض الأكـــبر إذا تعلّق به آلاف الناس، وربما ملايين، يطلبون من الله حقهم منه؟!

ألا وإنّ مِن أشـــدّ ما يُبتلَى به بعضُ عُبّادِ الكرسي: أن يلبّســـوا بغيَهم وظلمَهـــم وعدوانَهم لبوسَ الدِّيـــن، ولو أنّه كان مـــن دون ذلك لكان عظيمًا، فكيف والأمر كذلك؟! فيا ويل هذا النوع من العبيد حين توضعُ

(١) رواه البخاري (رقم٧١٤٨).

الموازين، وتُنشرُ الكتب التي لا تغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصتها، يومَ: ﴿لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[الروم: ٥٧].

ويبلغُ الكرسيُّ أسـوأ آفاته حين يتخلى الإنسانُ -بسببه- عن مبادئه، ويَقبل بأنصافِ الحلول وأرباعها، ويقـدّم التنازلات تلو التنازلات مِن أجل الوصول إلى هذا الكرسي!

لقد أدركتُ في حياتي وُزراء أُعْفوا من مناصبهم، فأما أحدُهم فتقاطر الناسُ على بيته عَصْرَ ذلك اليوم مهنّئين له بحسن السيرة، وقوّته وأمانته، وممن حضَر وزراءُ البلد وعلماؤه وأعيانه ووجهاؤه، بل إن الموظّف الذي كان يقدّم له القهوة والشـاي في مكتبه كان مـن أوائل مَن حضر ليقدّم القهوة والشـاي لضيوف صاحب المعالي الذي كان على كرسـيّه أمسِ، وآخـرون لم ينتهِ المذيعُ مِن خـبر إقالتهم من مناصبهـم إلا ومَنْ حولي يسـجدون شـكرًا لله على ذلك! يا لها من مفارقة! ونعوذ بالله أن نكون شامتين، ولكن العاقل من اعتبر، واستفاد مما يجريه الله مِن العِبَر.

الكرسي الثاني

١٣/ ٤/ ١٤٣٦هـ

عتَبَ عليّ بعضُ الفضلاء بعد نشري لمقال الأسبوع الماضي (الكرسي) حين غلّبتُ جانبَ الترهيب في حديثي عن (الكرسي) وتبعاته وآثاره، وقال: لمن يُتْرَكُ الكرسيُّ؟ أيَصِح أن يتركه الفضلاءُ لأجل خوفِ التبعات التي أشرتَ إليها؟ وهل تَسلّطَ الفجّارُ في بعض المناصب إلا بسبب هذا النوع من الخطاب في التحذير من الكراسي؟ وحشْد نصوص التحذير من الإمارة والولاية؟ إلى آخر ما تفضّلوا به من ملاحظات، جزاهم الله خيرًا.

وفي الحقيقة لم يكـــن المقصودُ من ذلك الخطاب ما أشـــاروا إليه، بل المقصود التحذير من (سَـــكْرته) عند الوصول إليـــه، وإلا فإن الكرسيَّ أو المنصبَ الديني أو الدنيوي لا بد من شـــغله وعدم تركه لغير الأكفاء؛ لأن التبعة على الأمّة حينئذٍ ســـتكون كبيرة وعظيمة، والشواهد أكثر من أن تُحصَر، ولأجل هذا نصَّ جماعةٌ من المصنفين في (السياســـية الشرعية) على أنه قد يتعين السعيُ للكرسيِّ في بعض المواضع؛ رعايةً لمصالح الأمة، وحفظًا لحقوقها.

واستنبط بعضُ المفسّرين ذلك من قول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[يوسف: ٥٥]، فهو حفيظٌ لما وُلّي، واستُودع، وعليمٌ بأمر تدبيره. والملاحَظ أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ حين أقدَمَ على الكرسي بهذه الصفات لم يَسأل مالًا لنفسه، ولا عَرَضًا من متاع الدنيا، ولكنه سأل أن يوليه خزائـــن الدولة؛ ليحفظ الأموال، ويَعـــدل في توزيعها، ويَرفق بالأمة في جمعها ووضعها في مواضعها، وهذا لعمر الله هو الفقه، والتديّن الحقُّ، فرعاية أموال الأمة، والدِّقةُ في توزيعها من أخطر الكراسي، ولك أن تتصور -في تلك الظروف التي عاشتها الدولةُ في زمان نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ- لو تولاها قليلُ العلم بالتدبير، أو مطعونٌ عليه في أمانته؛ كيف سيكون حالُ الناس؟!

ومِـــن فقه النـــووي رَحِمَهُ اللَّهُ أنه حـــين شرح حديـــث أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يا أبا ذر، إني أراك ضعيفًا، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تَأَمَّرن على اثنين، ولا تَولّين مال يتيم**»[1]، وبيّن أنه أصلٌ عظيمٌ في اجتناب الولايات -ولا ســـيما لمن كان فيه ضعف عن القيام بوظائـــف تلك الولاية- قال بعدها مباشرةً: «وأما من كان أهلًا للولاية، وعَدَلَ فيها؛ فله فضلٌ عظيم تظاهرت به الأحاديثُ الصحيحةُ كحديث: «**ســـبعة يظلهم الله...**»[2]، وحديث: «**إن المقســـطين على منابر من نـــور...**»[3]، وغير ذلك، وإجماعُ المسلمين منعقد عليه»[4].

---

(١) رواه مسلم (رقم١٨٢٦).

(٢) رواه البخاري (رقم٦٦٠)، ومسلم (رقم١٠٣١).

(٣) رواه مسلم (رقم١٨٢٧).

(٤) شرح النووي على مسلم (١٢/ ٢١٠).

ومما يحســـنُ ذكره والتنويه بـــه في هذا الباب: وجـــودُ عددٍ غير قليل من النماذج المشرقة لمن ترجّلوا عن كراســيّهم، إمـــا بموت أو إعفاء، أو لغير ذلك من الأســـباب، ولم تأخذهم سَكرةُ المنصب، ولا طوّحت بهم الألقاب، ولا اســـتهوتهم أبّهة الجاه، مع كثرة المغريات وتنوعها، خاصةً في عصرنا هذا.

إن الدَّيانة كما تكون في ترك المنصب خشيةً من التَّبِعة، فهي كذلك في الموافقة على تولّيه إذا غلب على ظنّه القيام بحقّه، دون أن تستشرف نفسُه لذلك، فإن الاستشراف مَظِنة الكِلَةِ إلى النفس والخذلانِ - عياذًا بالله-، «وقد جاءت شواهد الســـنة: بأن من ابتُلي بغير تعرّض منه؛ أُعين، ومَن تعرّضَ للبلاء خيف عليه»[1].

والمبتـــلى بهذه الكـــراسي، لا غنى له -لينجو- عن ســـؤال الله العونَ والتســـديد، والاســـتعانة برأي ذوي العقول والخبرة، ممن يتخذهم عَيبة نصحٍ، يستشيرهم في الملمّات، فما خاب من استخار، ولا ندم من استشار.

❋

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٢١).

مشغول!

١٩/ ٤/ ١٤٣٦هـ

يبدو أن هذه الكلمة مِن أكثر الكلمات التي نسمعها ممن يُطْلبُ منهم عملٌ ما!

ومن المؤكـــد أن بعضَهم كذلـــك، إلا أن مما يدعو إلى الدهشـــة: أن يفاجئـــك طفلٌ في المرحلة الابتدائية-عندمـــا تطلب منه عملًا، أو تعاتبه على تقصيره- فيقول: أنا مشغولٌ!

الانشـــغالُ الحقيقيُّ المثمِر علامـــةُ حيويةٍ ودَأَبٍ، والإنســـانُ بطبعه (همّـــام)، بل التوقّـــف علامةُ مرَض، لكـــن هل هذه الكلمـــة تُقال في موضعها؟ أم هي كلمة نعبِّر بها -أحيانًا- عن هروبنا من تحمّل المسؤولية أو العمل الذي يُراد مِنّا فعلُه وتنفيذُه؟

الواقع أن أكثر الناس لديه وقتُ فراغٍ كثيرٍ، ويعيش (فوضى منظّمة)، والقليل منهم من يرتبط بأعمالٍ تســـتهلك أكثـــرَ وقته، ولا أظن أنني في حاجة لذِكر الشواهد على هذا.

والسبب في انتشار هذه (الفوضى المنظّمة) -في تقديري- هو: غيابُ

الأهـــداف الواضحة عند كثيرٍ من الناس، وأعني بها الأهدافَ الواضحةَ للإنســـان في هذه الحياة، الأهداف التي تنقل الإنســـانَ مِن السَّـــلبية إلى الإيجابية والتأثير، ومِن الفوضى إلى الترتيب.

ومِـــن البدهـــي -الذي لا يحتـــاج إلى تقريـــر- أن النـــاس تتفاوت هِمَمُهـــم، وتتباين أهدافُهـــم وقدراتُهم، لكن من المؤكـــد أن كثيرًا منهم يســـتطيع أن يكون رقمًا مؤثرًا ولو تأثيرًا قليلًا، المهم أن يَطرد عنه الكسلَ والانشـــغالَ الموهومَ، وإلى هذا يشـــير قولُـــه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**طوبى لعبدٍ آخذٍ بعَنان فرَسه في سبيل الله، أشعثُ رأسُه، مغبرةٌ قدَمَاه، إن كان في الحراسةِ كان في الحراسة، وإن كان في السَّاقة كان في الساقة**»[1]، فهذا رجـــلٌ قد لا يُؤبَه لـــه، لكنه شـــخصٌ مؤثِّر، وحيثـــما وُضِع نَفَع.

ومِن الأجدر بالعاقل أن يراجع ترديدَه لكلمة (مشـــغول)، وأين تقع هذه الكلمة في خريطة حياته (الجادّة)؟ وكم سيضيف ترديدُ هذه الكلمة إلى رصيده من المنجزات بعد عشرات السنوات؟!

وثمة نوعٌ من الشغلِ لهجتْ به ألسنةُ السلف الصالح -رضي الله عنهم- وهو شـــغل القلب واللســـان بما يصلحهما، كقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنما هذه القلوب أوعية، فاشـــغلوها بالقرآن، ولا تشـــغلوها بغيره»[2].

ويقول جعفر بن محمـــد: «إياكم والخصومة في الدين؛ فإنها تَشـــغل القلبَ، وتُورث النفاق»[3].

---

(١) رواه البخاري (رقم٢٨٨٧).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٦/ ١٢٦).

(٣) الإبانة الكبرى لابن بطة (٢/ ٥٢٦).

ومِن توفيق الله لعبده أن يوفِّقه لنوعٍ من أشرف معاني هذا (الانشغال)، وهو: أن ينشغل العبدُ بعيوبه عن عيوب غيره، ولسانُ حالِه يقول: إن في النفس لشُغْلًا عن الناس.

والويل لمن ابتُلي بالانشغال بعيوب الناس عن عيب نفسه، أو انشغل بباطلٍ من القول أو العمل، يجد غِبّه إذا انتقل عن هذه الدار.

ولنختم هذه الأســطر بكلمةٍ معبّرة على الرغم من قِصَر كلماتها، تلك هي التي لخّصهــا الإمامُ عبدالرحمن بن مهــدي (١٩٨هـ) واصفًا حالَ شــيخه المحدِّث الجليل حمّاد بن سلمة (١٦٧هـ) بقوله: لو قيل لحمّاد بن سلمة: إنك تموت غدًا؛ ما قَدِرَ أن يزيد في العمل شيئًا![1].

اللهم، فاملأ قلوبَنا بك فرحًا، وألســنَتنا لك ذِكــرًا، وجوارحَنا فيما يرضيك شُغلًا.

❋

(١) ويعني بذلك عمل البدن، أما عبادات القلب فلا حدّ لها.

التربية بالقرآن.. والعودة إلى المنهج الأصيل

٢٥/ ٤/ ١٤٣٦هـ

الجزء الأول من عنوان هذه المقالة هو عنوان الملتقى الذي نظّمته الجمعيةُ العلميةُ السعوديةُ للقرآن وعلومه (تِبيان) بعنوان: (التربية بالقرآن... نماذج وتجارب) نهاية الأسبوع الماضي (٢٢-٢٣/ ٤ / ١٤٣٦هـ) في رحاب جامعة أم القرى[1].

والتميز الذي لمسه الحضورُ والمشاركون في هذا الملتقى، هو: الانتقالُ بكثيرٍ من بحوثه وتجاربه من التنظير إلى التطبيق، حيث استمع الحضورُ إلى نماذج عملية تمّ تطبيقُها في سبيل تحقيق هذا الهدف (التربية بالقرآن).

ومع يقين كل باحثٍ بأهمية التأصيل والتنظير في هذا الموضوع المهم (التربية بالقرآن)؛ إلا أنه قد حان الوقتُ للإفادة من التجارب القائمة في الساحة، سواء هنا في المملكة أم في غيرها من بلاد الإسلام؛ لأن الغاية من البحوث المؤصِّلة لهذا الموضوع هي: الانتقال بها إلى الميدان؛ ليفيد منها المربّون، والمعلّمون والمعلمات، والجهاتُ الإدارية التي تُشرِف على حلقات ودُوْر تحفيظ القرآن الكريم.

---

(١) يمكن تحميل بحوث هذا الملتقى من هنا:
http://www.alquran.org.sa/main/articles.aspx?article_no=709&search=1.

لقد بعث هذا الملتقى الأملَ، وجدّد الفألَ في النفوس بأن في الأمة خيرًا كثيرًا، وأن هناك رجالًا ونساءً يعملون، ولا يَكلّون في سبيل الأخذ بأيدي الأجيال إلى رياض القرآن، وتربيتهم بهديه، وصناعتهم على قِيَمِهِ وأخلاقه، في منظومةٍ من البرامج والمناهج المبنيّة على أُســـسٍ علمية وإدارية جيدة.

ولقـــد كنتُ، وأنا أســـتمع إلى بعض تلك التجارب والنماذج أشـــعر بالغبطـــة والسرور، وأنا أرى العودة إلى المنهج الأصيل في التربية القرآنية (الإيمان قبل القرآن)، الذي عبّر عنه جندب بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله: كنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -ونحن فتيـــان حزاورة[1]- فتعلَّمنا الإيمانَ قبل أن نتعلـــم القرآن، ثم تعلَّمنا القرآن؛ فازددنا به إيمانًا[2]، وورد نحوَه عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

والمراد بهذا المبـــدأ -الإيمان قبـــل القرآن- : غرسُ معـــاني الإيمان، وتعظيمُ أمر الله ورســـوله في القلوب، ومحبّتهـــما، وتقديمُ ذلك كلّه على النفس والوالد والولد والنـــاس أجمعين، وجعْلِ ذلك من شروط صحة الإيمان، في تنويعٍ عجيبٍ في الوسائل التي تُحقِّق هذا الأصلَ المهمَّ.

ومما يوضح شيئًا من تفاصيل هذا المنهج النبوي، الذي تلقّاه الصحبُ الكرام عـــن المربي الأول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثـــم نقلوه إلى التابعـــين؛ ما رواه أبوعبدالرحمن السُلَمَيّ، فقال: إنا أخذنا هذا القرآنَ عن قومٍ أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلّموا عشرَ آيات لم يجاوزوهن إلى العَشر الأُخَر حتى يَعلَموا ما

---

(١) حزاورة: جمع حـــزْوَر، وحزوّر: هو الذي قارب البلوغ، والتـــاء لتأنيث الجمع، ينظر: (النهاية) (١/ ٣٨٠).

(٢) رواه ابن ماجه (رقم٦١)، وسنده حسن.

فيهن، فكنا نتعلّم القرآنَ والعملَ به، وإنه سيرث القرآنَ بعدنا قومٌ لَيَشْرَبُونه شرب الماء، لا يجاوز تراقِيَهم! بل لا يجاوزها هنا، ووضع يده على الحلْق[1].

وهـــذه الآثار -أثر جندب وابن عمـــر وأبي عبدالرحمن- تُبين المنهجَ النبويَّ الذي ســـار عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غرس هـــذا المبدأ، وكيف أخرج ذلك الجيـــلَ العظيمَ -جيـــل الصحابة- مع أن أكثرهـــم لم يكن حافظًا للقرآن كله، بل الحفّاظ فيهـــم قليل! لأنهم تلقّوا حقائقَ القرآن، وفهِموا مقاصدَه ومعانيه؛ فسرى هذا في عباداتهم، وسلوكهم، ومعاملاتهم.

ومَن تأمل في قصة إراقة الخمر، وفي قصة أبي طلحة حين نـــزل قولُه تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:٩٢] وتصدُّقِه ببستانه، وقصةِ ثابت بن قيس حين نـزل صدرُ سورة الحجرات، وقصةِ كعب بن مالك حين أُمِرَ بمفارقة زوجته، فقال: أُطلِّقها أم أُلحقها بأهلها؟ وقصةِ نساء الأنصار حين نـزلت آيةُ الحجاب، وغيرها كثير؛ من تأمل ذلك كلَّه علم أنها شواهد على أثر هذه التربية النبوية العظيمة.

لذا، فإنني أتمنـــى أن يعود تطبيقُ هذا المنهـــج -الإيمان قبل القرآن- في حلقات مســـاجدنا، ولئن كان يَصعب تحويلُ الحلْقات كلها إلى هذا، فلا أقلّ من تأســـيس حلقةٍ في كلّ مجمّع تتبنى ذلك، وهذا يســـبقه تهيئةُ المدرّسين الذين يقومون على هذه الحِلَق؛ إذْ لا بد أن يكونوا ممن يتحلَّون بخلُق القرآن، وعلى قـــدْرٍ جيدٍ من التحصيل الشرعي، خاصةً في القرآن وعلومه، وأن يكونوا ممن عُرفوا بذلك، فالتلقّي هنا ليس مجرد تلقين، بل نقلٌ للمعرفة والسلوك.

---

(١) رواه ابن سعد في (الطبقات) (٦/ ١٧٢) وسنده جيد.

إن كثيرًا من طـــلاب الحلقات لا يتهيأ لهم الاســـتمرار حتى يحفظوا -وهذا شيء طبيعي- فلتبْقَ معهـــم التربيةُ الإيمانيةُ، والهداياتُ القرآنيةُ، وإن لم يُكمِلوا حفظ القرآن؛ إذْ المقصد الأكبر إصلاحُ القلب والسلوك ما أمكن، وإن لم يتيسر الحفظ؛ فالحفظ فضلٌ يؤتيه الله من يشاء، وعلى مدار القرون لم يكن الحفّاظ إلا عددًا قليلًا في الناس.

ثقافة الاعتذار

١/ ٥/ ١٤٣٦هـ

حياتنا الاجتماعية تكتــظ بألوانٍ من الارتباطــات والعلاقات، هي في مُجمَلها حســنةٌ جميلةٌ، ومما تتميز به المجتمعات الإســلامية -والعربيةُ بشكل أخصّ- عن كثيرٍ من شعوب الأرض.

إلا أن هــذه العلاقات تمــرّ ببعض المنعطفات التــي تؤدّي في بعض الأحيان إلى انقطاعها وتَصرّم حبالها! بســبب عدم مراعاة أحدِ الطرَفين لبعض الأسس والمبادئ التي تقوم عليها هذه العلاقات.

وإذا كان أهمّ هذه الأسسِ: الاحترامُ والتقديرُ المتبادلُ، ومراعاةُ كلٍّ مــن الطرفين حقوقَ الآخر؛ فالعاقل يراعي ذلــك، فهو أدعى لديمومة العلاقة واستمرارها.

ولما كان النقصُ والخطأُ طبيعةً في البَــشَر؛ فمن المهم أن يُبادِر المقصّر والمخطئ للاعتذار، وردمِ الهوّة التي قد يوسّــعها الشــيطانُ بوسوسته، وألوان الظنون التي تأتي في النهاية على بنيان تلك العلاقات من القواعد، فتخرُّ، وتنهارُ، وقــد تكون تلك المودةُ بين قريبَــين أو صديقين قديمي الصداقة.

وردمُ الهوّة التي تنتج عـــن موقفٍ ما -قد لا يخطر ببال أحدِ الطرفين موقعه عنـــد الطرف الآخر- وقطعُ الطريق على الشـــيطان؛ منهجٌ نبويٌّ عظيمٌ، دلّت عليه مواقفُ عدة في الســـنَّة، منها ما رواه أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما كان يوم حنين؛ أقبلت هوازن وغطفـــان وغيرُهم بذَرَاريهم ونَعَمهم، ومع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومئذ عـــشرة آلاف، ومعه الطُّلَقاء، فأدبروا عنه، حتـــى بقي وحده! قال: فنادى يومئذٍ نداءَين، لم يخلط بينهما شـــيئًا، قال: فالتفتَ عن يمينه، فقال: «يا معشر الأنصار» فقالوا: لبيك يا رسول الله، أبشر نحن معك، قال: ثم التفتَ عن يســـاره، فقال: «**يا معشر الأنصار**» قالوا: لبيك يا رســـول الله، أبشر نحن معك، قال: وهو على بغلة بيضاء، فنزل فقال: «**أنا عبد الله ورســـوله**»، فانهزم المشركون، وأصاب رســـولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غنائـــمَ كثيرةً، فقســـم في المهاجرين والطلقـــاء، ولم يُعْطِ الأنصارَ شـــيئًا، فقالت الأنصار: إذا كانت الشدَّة فنحن نُدعى، وتُعطى الغنائم غيرَنا! فبلغه ذلك؛ فجمعهـــم في قُبة، فقال: «**يا معشر الأنصار! ما حديث بلغني عنكم؟**» فسكتوا، فقال: «**يا معشر الأنصار، أما ترضون أن يذهب الناسُ بالدنيا، وتذهبون بمحمد تحوزونه إلى بيوتكم؟**» قالوا: بلى، يا رســـول الله، رضينا، قال: فقال: «**لو سلك الناسُ واديًا، وسلكت الأنصارُ شِعبًا، لأخذت شِعب الأنصار**»[1].

فانظر كيـــف بادر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وهـــو الذي يُوحَى إليـــه- إلى قطعِ الطريق على الشيطان، وترضية الأنصار بهذه الكلمات التي تُعادِل غنائمَ الدنيا كلها.

---

(١) رواه مسلم (رقم١٠٥٩).

إن التأخّـــر في الاعتـــذار -فضلًا على التنكّر له بوصفـــه مبدأً- ليس بجيّد، خاصـــةً إذا كانت الصداقـــة أو العلاقة لم تبلغ درجـــةً من المتانة بحيـــث لا تُحوِج للاعتذار، كما قال يحيى بن معاذ: «بئس الصديقُ صديقٌ يُلجئك إلى الاعتذار»، ولكن مَنْ لي بمثل هذا المستوى من الصداقات؟! إنـــه لنادرٌ كندرة الكبريت الأحمر، وقد أحســـن القائل: «الاعترافُ يهدم الاقتراف»[1]؛ أي إنه يمحو أثرَ الخطأ والتقصير.

وفي المقابـــل: فإن على الطـــرَف الآخر -صاحب الحـــقِّ- كالداعي لمناسبة، أو طالبِ المعونة والمســـاعدة؛ أن يكون واسعَ الصدرِ في التماس الأعذار لإخوانه، جاعلًا تلك المقولة الشـــهيرة نصب عينيه: «إذا بلغك عن أخيك الشيء تُنكِره؛ فالتمس له عذرًا واحدًا إلى ســـبعين عذرًا، فإن أصبته وإلا فقل: لعل له عذرًا لا أعرفه»[2].

وليســـتحضر مقولةَ ذلك الرجـــل العاقل -جعفر بـــن يحيى- حين اعتذر إليه رجلٌ، فقال له: «قد أغنـــاك الله بالعذر عن الاعتذار، وأغنانا بحسن النية عن سوء الظن»[3]؛ لأنّ تَطَلُّبَ الإنسانِ للاعتذار من إخوانه دومًا يوجب التكلف، ويُشـــعِر الأخ بنوع من الغربة عن أخيه وصديقه، والسبب؟ كلمة عابرة، أو زلة لسان!

وليتذكر أحدُنا أنه في حال ما اســـتوقف الآخريـــن عند كلِّ صغيرة وكبيرة؛ فإنه ســـيضطرهم إلى المعاملة بالمثل، وإذا صار التلاومُ والعتابُ سِمةَ العلاقة؛ فقد آذنت بصُرْمٍ!

---

(١) عيون الأخبار (٣/ ١١٣).

(٢) شعب الإيمان (١٠/ ٥٥٩).

(٣) العقد الفريد (٢/ ١٨).

ولســـتَ بمُسْـتَبْقٍ أخًـا لا تَلُـمُه

على شعثٍ أيُّ الرجالِ المهذبُ؟!

وكان البضعــة النبوية جعفر بن محمد الصــادق -رحمه الله- يقول: «أثقل إخواني عليّ: من يتكلّــف لي وأتحفظ منه، وأَخَفّهم على قلبي: من أكون معه كما أكون وحدي».

ويتأكد هذا المعنى، في حقّ من بوأه اللهُ مكانةً في قومه ومجتمعه؛ كشيخ القبيلة، وشيخ العلم، وأمثالهما؛ إذْ «لا يصلح للصَّدْر إلا واسع الصدر» كما قال بعضُ البلغاء.

وبالجملة: فالنفسُ إذا عُوّدت مكارمَ الخصال، وجاهدتْ على ذلك؛ تطبّعت، واســتقامت، وإذا كان صرْم الحبال مع الناس سهلًا؛ فإن إبقاء حبال المــودة، والصبر على تفــاوت أخلاقهم لا يَقدر عليــه إلا عظماءُ الرجال، وهكذا كان سيدي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي قال الله له: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[الأعراف: ١٩٩].

صفحة من حياة شيخ الحنابلة

٧/ ٥/ ١٤٣٦هـ

شـــيخنا الشيخ الفقيه عبدالله بن عبدالعزيز بن عقيل (ت: ١٤٣٢هـ) المعروف بشـــيخ الحنابلة؛ عَلَمٌ ماجدٌ، وقامةٌ مشهورةٌ في الحركة العلمية والقضائية في بلادنا، بل وخارجها.

ولستُ في هذه الأسطر أُترجم له، أو أتحدث عن سيرته؛ فقد كَتب عنه مَنْ لازموه، واستفادوا منه كثيرًا[1]، أما العبد الفقير فقِراءته عليه جاءت في آخر سنتين من حياته رحمة الله عليه، لكنني قصدتُ منها أن تكون لفتةً إلى خصلةٍ عظيمةٍ تميّز بها، وصارت جزءًا من شخصيته، ومحلَ إجماع عند كل مَن عرَفه أو شامه العلم، أو جلس عنده بضعة مجالس، التي كان لها أثرٌ

---

(١) صدرت لشـــيخنا ترجمة ضافية ومطولة في أربع مجلدات، نشرتها دار الصميعي، واعتنى بها تلميذه الشيخ بلال الجزائري -أثابه الله-. وأكثر ما ينتقد على الترجمة خلوها من ذكر أســـماء من اســـتفادوا من علمه، وهذا نقصٌ بيّن في أحد أركان الترجمة المعتبرة عند أهل العلم، نرجو أن يستدرك مستقبلًا في الطبعة القادمة.

وقد أحســـن موقع الألوكة حين أنشأ صفحة لشيخنا على الشبكة، جمعت عددًا من كتبه وصوتياته:

http://www.alukah.net/web/alaqeel/10108/

وفي هذه الصفحة مقالات عدة تحدثت عن جوانب من شخصيته.

كبير في توافد الطلاب عليه من داخل المملكة وخارجها، لينهَلوا من عِلمه وعطائِه حتى آخر لحظة من لحظات بذلـــه، إنها: التواضع غير المتكلَّف.

والتواضعُ يقع موقعه إذا صدر من الكبار -وشـــيخنا منهم-، ولهذا التواضع مظاهر جلية، لا تخطئها عينُ الإنسان الذي يحضر بضعة مجالس، من أبرزها:

١. **التواضع العلمي**: المتمثل في اســـتفادته من كل أحدٍ لديه فائدة، لا يتردد في الاحتفاء بهـــا، والثناء عليها، ولو كان المفيدُ بها أحدُ طلابه بلْه أقرانه.

أذكر أن أحدهم أخبره عن طبعة مميزة لأحد الكتب، فقال: جزاك الله خيرًا، هذه فائدة منك، ثم ســـأله عن الطبعة والمحقِّق وجودة التحقيق، وأين يباع؟ وأوصى باقتناء نسخة من الكتاب.

وكثيرًا ما ينصّ -عند الترجيح الفقهي- على اختيارات بعض أقرانه ومَن هم أصغر منه ســـنًّا، ولا أحصي كم سمعته يذكر اختيارات شيخنا العلامة ابن عثيمين في المسائل الفقهية، مع أن شيخنا العثيمين من حيث السنّ أصغر من شيخنا ابن عقيل باثنتي عشرة سنة! وإذا أردتَ المزيد من هذه النماذج فاقرأ رسالته: (تحفة القافلة في حكم الصلاة على الراحلة).

٢. **التواضع الشخصي**: وهذا ظاهرٌ جليٌّ في حفاوته بمن يزوره من أهل العلم، سواءٌ كانوا علماء أو طلاب علم، وجُلُّ من يزوره أصغر منه ســـنًّا، ومع هذا يُظهر لهم من الاحترام والتقدير شـــيئًا لافتًا للنظر، وله في هذا مواقف كثيرة، منها -وهو شيء شـــاهدته، أو ســـمعته،

وما خفي عليّ أكثر-: حرصه على زيارة شـــيخنا العثيمين في مخيمه في الحجّ.

ومرةً قدّم له تلميذُه وصديقنا أ. د. عبد المحســـن العسكر في محاضرة (ابن ســـعدي كما عرفته)، وقبل أن يبدأ شيخُنا ابن عقيل بالمحاضرة علّق قائـــلًا بكلام معناه: إن قول د. عبدالمحســـن: إنه اســـتفاد منّا كثيرًا، فأنا أقول: إن ما أستفيده منه أكثر مما يستفيده مني! أو كلامًا هذا معناه.

وإذا قَدِمَ عليه طالبُ علم كبيرٍ في مجلســـه، أثنى عليه، وعلى ما له من مؤلفات، وحثَّ على الاستفادة منها، وقع هذا أكثر من مرّة.

ومواقف الشيخ في هذا يصعب حصرُها، والأهمُ من ذلك هو ما أثَر تتبع مثل هذه الخصلة علينا معاشر طلاب العلم في حياتنا العامة؟

لا ريب أن القدوة المطْلقة في كل خُلق نبيل هو رســـولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن مِن فضل الله تعالى أن يجعل للناس أئمة يُقتدى بهم في الخير -علمًا وعملًا-، يرون فيهم نماذج ربانية يُحيي بها اللهُ ما اندرس من رِمم مكارم الأخلاق.

والنـــاسُ يحتاجون إلى طالـــب العلم المتواضع، الـــذي يكسر بعضَ الحواجز المصطنعـــة، التي ربّما تشرّبها بعضُ الطلاب خطًا -شـــعر أم لم يشـــعر- من بعض الكتب المصنَّفة في (آداب طالب العلم)، التي تحدثت عـــن صيانة العلم، ففهم بعضُهم ذلك على غـــير وجهه، فأوجد حواجز وهمية، جعلته في مكان قـــصيّ، وقلّلت من إفادة الناس من علمه وقرب الناس منه.

ومن اشـــتبه عليه شيءٌ من ذلـــك، أو غلب عليه مـــا يوافق طبعه مما يقرؤه في كتب التراجـــم؛ فليقرأ هذا الحديث الذي ذكره أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصة مَقدَم ضمام بن ثعلبة، فقد ســـأل حين دخـــل: أيكم محمد؟ والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متكئ بين ظهرانيهـــم، فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ![1] الله أكبر! لم يستطع ضمام أن يميز النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى سأل عنه!

وبعـــد ذلك دعْ عنك يا طالب العلم- كل النماذج التي تبالغ في حفظ وقار العلم، حتى عزلت العالِمَ عن عالَمِهِ!

وما ســـبق لا يُفهم منه -بالتأكيد- ابتذال العلم، ولا إســـقاط هيبته ووقـــاره، بل هو دعوة لخلع بعـــض الأردية والحواجـــز الموهومة، التي حالـــت بين أهل العلـــم وبين طلابـــه، والله الموفق لأحســـن الأخلاق والأقوال والأفعال، لا يهدي لذلك إلا هو.

❋

(١) رواه البخاري (رقم٦٣).

قناة يوتيوبية

١٣/ ٥/ ١٤٣٦هـ

أثبتَ الجيــلُ الجديدُ من الشــباب وجودَه بل وتأثيره في اســتخدام الإعــلام الجديد للتعبير عن بعــض همومه، وللحديــثِ بالطريقة التي يراها مناسبةً لمخاطبةِ أقرانه من الشباب الذين يمثّلون القطاعَ الأكبرَ من مجتمعاتنا العربية على وجه الخصوص، متخفّفين بذلك من العقبات التي قد تواجههم في الإعلام التقليدي.

عدّادُ الإحصاءات (اليوتيوبي) يؤكد أن أعدادَ المشتركين في القنوات الفردية لبعض الشــباب تجاوزت -وبشكل مضاعف- أعدادَ المشتركين في القنوات اليوتيوبية التي تملكها قنواتٌ فضائيةٌ مشــهورةٌ، مشاهدوها بعشرات الملايين!

وهذا كله مؤشر واضح على نجاح هؤلاء إعلاميًّا وفنيًّا -بغض النظر عن مضمون هذه القنوات- في مخاطبة هذه الطبقة من المجتمع، التي هي من أصعب مراحــل العمر؛ لكثرة ما يعتريها من تقلبات فســيولوجية، ونفسية، وفكرية.

وبعد اطلاعي على مضامين بعض هذه القنوات؛ وجدتُ أن الهادفَ منها، أو الـــذي يجمع بين الترفيه والإفـــادة معًا قليل بالنســـبة إلى باقي القنوات التي خلا أكثرها -مع الأسف- من الجمع بين الترفيه والإفادة، بل بعضها تضمّن محاذير شرعية واضحة؛ كالتهاون في إدراج الموسيقا، أو صور ومقاطع لنساء متبرجات، وأخطرُ من هذا بعض المضامين الفكرية الخطيرة التي تتضمنها بعضُ هذه المقاطع؛ من ســـخرية بالشعائر الدينية والأحكام الشرعية!

ومع كثـــرةِ هذه القنوات التي تزداد يومًا بعد يوم؛ أردتُ أن أرســـل هذه الرسالة إلى إخواني وأبنائي ملاك هذه القنوات والمقدّمين فيها، وإلى المشجعين لهم من المشتركين، التي أرجو أن تصل إلى قلوبهم كما خرجت من قلبي، فأقول:

- رؤيةُ آثار النجاح شيءٌ يبعث على السرور، ويدفعُ للمزيد، فهل فكّرنا في مضمون ما نقدّم؟ وأنه على أقلّ الأحوال لا يجلب لنا ســـيئاتٍ إذا أفضينا إلى ربنا تعالى، فإن ميزان النجاحِ والفوزِ هناك إنما هو برجحان الحســـنات على السيئات فقط لا غير، لا شهرة، ولا كثرة مشتركين أو متابعـــين! ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[آل عمران:١٨٥].

- الوصولُ إلى الناس، والرغبةُ في كثرة المشتركين لا يجوز أن يكون على حساب القفز على المســـلمات والثوابت الدينية، ولا بإقحام المَشَاهِدِ التي فيها محاذير شرعية.

■ إن كلَّ مســـلمٍ يكرهُ أن يعصي الله في نفسه، فضلًا على أن يجلب لنفسه ملايين الســـيئات على حساب ملايين المشـــاهَدات! والموفّق هو من يستولي عليه همّ رضا الله قبل همّ الأرقام المليونية للمشاهدات.

وإني أعيذك بالله أن تكون ســـببًا في تجرئة فئام من الشباب والفتيات على الطعن في الثوابت، أو الســـخرية بالمســـلَّمات بسبب مقطعٍ أو مشهدٍ من المشاهد؛ فإن هؤلاء لن ينفعوك إذا وقفتَ بين يدي ربك حافيًا عاريًا، بل ســـيكونون خُصماء لك؛ لأنهم ســـيحتجون أمامَ الله عليك بأنك مَنْ دللتهم على ذلك، وأدَعُ لك المجال لتسبح في التفكر في الفرق بين هذين النموذجين اللذين ذكرهمـــا نبيك ﷺ بقوله: «**من دعا إلى هدى، كان له من الأجر مثل أجور مَن تَبِعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شـــيئًا، ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا**»[1]، فمن أي الفريقين تحب أن تكون؟

■ هل فكرتَ -أخي- كم ســـتبقى هذه المقاطـــع بعد موتك؟ خمس أم عشر ســـنين؟ أم ربع قرن؟ أم كم؟ ما الذي ســـتتمناه حين تُوَسّد في قبرك، وقد تركتَ خلفك هذه التركة من عشرات ومئات المقاطع؟

■ حاول -قبل أن تنشر أي مقطع- أن تجيب عن بعض الأســـئلة: هل هذا الذي ســـأقدمه يرضي الله؟ هل ســـيكون في رصيد حســـناتي أم ســـيئاتي؟ ما الذي ســـيضيفه للمجتمع والأمة؟ وإلا فاحفظ وقتك، وسخّر جهدك للأنفع.

---

(١) رواه مسلم (رقم٢٦٧٤).

■ ســـيأتي بعض الأنبياء يوم القيامة، وليس معه أحـــد! وهو نبيٌّ مؤيدٌ بالوحـــي، وهو على حق، وســـيكون في أعلى منـــازل الجنّة! أرأيت؟ فميـــزان الرفعة عند الله في الدنيا والآخرة لا يركنُ إلى الأرقام؛ بل إلى سلامة المنهج.

والمقصود من هذا ليس دعوةً إلى ترك هذا الميدان، بل هي دعوة للنظر في مضامين ما نقدّم، وأن نعتني كثيرًا بالنظر في المســـتقبل الأخروي قبل الدنيوي، فهو المستقبل الأبدي، وهو الذي لا يُخْفَضُ فيه من ارتفع، ولا يرتفعُ فيه من انخفض.

فقهاء الحسد

١٩/ ٥/ ١٤٣٦هـ

حين يُذكَر الفقه؛ فلا يكاد ينـــصرف الذهنُ إلا للفقه في الدين، وهو شيءٌ مفهوم، ولكنْ ثمةَ نوعٌ من الفقه يمنّ اللهُ به على مَن يشاء مِن عباده، وهو (الفقـــه بأدواء النفوس)، وكيفية التعامل معهـــا، والقدرةِ على نزع فتيل تلك النار التي تشـــتعل في قلوبِ بعض الأنفـــس التي لا تَرى إلا المساوئ، ولا تعرف الإنصاف!

ومن صور هذا الفقه: التعامل مع الحُسّـــاد، إذْ لا يَسلَم ذو نعمة من حاسد، «وبحســـب فضل الإنســـان، وظهور النعمة عليه؛ يكون حسد الناس له، فإن كثُر فضلُه كثر حسّـــاده، وإن قلّ قلّوا؛ لأنّ ظهور الفضل يثير الحسد، وحدوثُ النعمة يضاعف الكمَد»[1].

وفي القرآن الكريم والســـنة النبوية إشـــارات إلى فقه التعامل مع هذا النوع من الناس، منها:

- العفو والصفح عن الحاســـد، أو الإعراض عنه تمامًا، حتى يُظْهِر اللهُ المحســـود عليه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ

(١) أدب الدنيا والدين (ص١٧٦).

لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[البقرة: ١٠٩].

وفي قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أظهرُ دليلٍ على هذا المعنى، فلله درّه حين قال: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[يوسف:٩٢]، بل بالغ في الإعراض عن ذكر آثار حسدهم ولو بالإشارة، فقال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ ﴾[يوسف:١٠٠].

وفي تعامل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع رأس النفاق عبدالله بن أُبيّ منهجٌ واضح في هذا، فإن ابنَ أبيّ لم يمنعه من القبول برسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والانقياد لأمره إلا الحسدُ، إذْ كان يترقب تسويدَه على أهل المدينة، فلما بُعث صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شرِقَ بدعوته؛ فعاداه، وآذاه، حتى أظهر اللهُ نبيَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه.

- إشعارُ الحاسد تصريحًا أو تلميحًا -وهذا يختلف بحسب المقام- بأنه لا يمنعني من مقابلة آثار حسدك إلا خوفُ الله تعالى، وفي قصة ابْنَي آدم ما يشير إلى هذا: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[المائدة:٢٨-٢٩].

- الصبر على أذى الحاسد، وعدم شكواه، ولا يحدّث نفسَه بأذاه أصلًا! فما نُصِرَ محسودٌ على حاسده بمثل الصبر عليه، والتوكّلِ على الله؛ فهو من أقوى الأسباب الّتي يَدْفع بها العبدُ ما لا يُطيق من أذى الخلق

وظلمِهم وعدوانهم، ومن كان اللهُ حسـبَه وكافِيه وواقيه فلا مَطمَع فيه لعدوّه.

وقد قال تعـالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾[الحج:٦٠] فـإذا كان الله قد ضمن له النصر مع أنه قد اسـتوفى حقه أولًا؛ فكيف بمن لم يستوفِ شيئًا من حقه! بل بُغي عليه وهو صابر؟![1].

■ الإحسـان إلى الحاسـد، وهذا- كما يقول ابن القيّم-: «من أصعب الأسباب على النفس، وأشقّها عليها، ولا يوفّق له إلّا مَن عظُم حظّه من الله»[2]، قـال تعـالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[فصلت:٣٤-٣٦].

ومـن الفقه في التعامل مع الحاسـد: إفهامه -برسـالة واضحة- أن الحسد لن يَضرني، ولن ينفعك، كما يعبّر عن ذلك موقفُ شُريح القاضي من رجلٍ قال له: إني لأحسـدك على ما أرى مـن صبرِك على الخصوم، ووقوفِك على غامض الحُكْم! فقال: ما نفعك اللهُ بذلك ولا ضرّني[3].

وبالجملـة، فإن الفقه في التعامل مع الناس مِنّـةٌ إلهيةٌ، ومِنحةٌ ربانيةٌ، يوفَّـق لها من اجتهد في تحقيق هذه القاعـدة القرآنية من قواعد التعامل: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[الأعراف:١٩٩].

---

(١) انظر: بدائع الفوائد (٢/ ٢٣٩).

(٢) انظر: بدائع الفوائد (٢/ ٢٤٣).

(٣) أدب الدنيا والدين (ص٢٧٠).

المِرآتيون

٢٥/ ٥/ ١٤٣٦هـ

قبل نحو عشرين سنة؛ طلبَ مني مرةً أحدُ الأصدقاء -وهو طالب علم- أن أذكر له ما أراه من ملاحظاتٍ وعيوبٍ لا يَسلَم منها البشر! فأكبرتُ هذا منه، وأفادني بموقفه هذا درسًا عظيمًا في تلمّس الكمالات، والاعتراف بالنقص.

المهم أني قلتُ له: لا يحضرني شيء الآن، لكن دعني أنقلُ لك ملاحظةً سمعتُها من أحدِ الإخوة، فلما ذكرتُها له؛ بيّن لي عذرَه فيما انتقده عليه ذلك الشخص، ودعا له، وشكره، ثم سألني عن مستوى هذا الأخ الناصح العلمي، وليس عن اسمه؟ فاستغربتُ سؤالَه هذا! فقال: أريد أن أُهدي له هديةً تليق به، ولأعبِّر عن شكري له على ما قال، بغضّ النظر عن دقّة فهمه لما جرى، فأخبرتُه أنه طالب علم يدرس في كليةٍ شرعيةٍ، فذهبنا جميعًا إلى إحدى المكتبات، فاشترى كتابًا تساوي قيمته الآن ٤٠٠ ريال في التخصص نفسه الذي يدرس فيه ذلك الأخ الذي نقلتُ نصيحتَه، فازداد عجَبي من هذا الصديق أكثرَ وأكثر!

ثم وجدتُ -بعد ذلك- مِن فِعال الســلف ما انطبق على حاله، فهذا عبدالرحمن بن يزيــد بن جابر يقول: قال لي بلال بن ســعد: «بلغني أن المؤمنَ مرآة أخيه؛ فهل تستريب من أمري شيئًا؟!»[1].

وأبوهريــرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقــول: «المؤمنُ مــرآة أخيــه، إذا رأى فيه عيبًا أصلحه»[2]، ويُروى هذا الحديــثُ مرفوعًا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلفظ: «**المؤمن مــرآة المؤمن**»[3]، فالإنســان إذا وقف أمامَ المــرآة رأى صورتَه الحقيقيةَ، بما فيها من حَسَــن وسَــيِّئ؛ لأن المرآة تعكس صورةَ الشخص بحُســنها وقُبحها، والإنسانُ ربما لا يســتطيع أن يعرف نفسَه، ولا يَرى نفسَه جيدًا، إلا من خلال رؤية أخيه المسلم الذي هو مرآة له:

فـالعــينُ تُبصـرُ فيها مـا دنا ونأى

ولا تـرى نفسَـــــهـا إلّا بمـرآةِ

فمَن منّا يملك الشــجاعةَ ليبادر إلى خاصــةِ إخوانه الذين يخالطهم بكثرة، ويراهم أو يحادِثهم كما يَرى المرآة، ليســألهم عن عيوبه وجوانبِ النقــص فيه، ولا ينتظر أن يأتي أحدٌ لينصحــه، فإن هذا قد لا يَجرؤ عليه إلا القليلُ من الأصدقاء؛ خشــيةً من تَبِعات هــذه المبادرة بالنصيحة، إذ النُّصــح لا يتقبله، ويحتفي به إلا النــوادرُ من الأصحاب؛ لأن النصيحة تعني الكشف عن العيوب!

ومن المتفق عليــه أنه لا أحدَ منّا يخلو من نقص وعيب، على حدّ قول الحريري:

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص٣١٢).

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (رقم٢٣٨).

(٣) رواه أبوداود (رقم٤٩١٨)، وحسّن الحافظُ ابن حجر سندَه في بلوغ المرام (رقم١٥٤٩).

مَنْ ذا الَّـذي ما سـاءَ قَـط

ومَـنْ لـه الحسـنَى فقَـط؟!

فمن العقل أن نفتح الباب، ونمهّد الطريقَ لخاصّة أصحابنا ليقوِّموا، ويقيّموا مـا يرونه منّا، خصوصًا مَن يكثـر اختلاطُه بالناس، ويتصدى لنفعهـم، فإن مظنّة الخطأ من هذا النوع أكثر؛ لكثرة ملابسـتهم للناس، ولتنـوع المواقف التي تقع من الآخرين تجاههم، ففيهم الجاهلُ والصغيرُ وصاحبُ الحاجة، ممن يُتوقع منهم صدور ما يستفزّ العاقل!

ومن المهم -ونحن في ميدان (المرآتية)- أن يحرص الناصحُ على لزوم أرفع درجاتِ الأدب، وحُسْنِ اللفظ عند التعبير عن المراد، مراعيًا الوقت والحالَ الأنسـبَ لبذل النصح، وعلى المنصوح أن يكون واسـعَ الصدرِ لتَلَقِّـي الخطأ، والتنبيهِ على الزلّة، وأن ينظـرَ إلى هذا التنبيهِ والنصحِ على أنه خطوة إلى الأمام في سـبيل التخفّف من العيوب، بل ينبغي أن يُشعِر الناصحَ بالامتنان على نصحه وتنبيهه؛ لأن هذا سيشـجعه في المسـتقبل على الاسـتمرار؛ حيث رأى أنك تجاوبتَ معه، ولـو رأى عكس ذلك فسيُحجم عن النصح.

ومِـن توفيق الله للمنصـوح أن ينظر إلى كلامِ الناصـح بما نظر إليه الخليفـةُ الصالح عمر بـن عبدالعزيز على أنها هديّـة، حين قال: «رحم الله من أَهدى إليّ عيوبي»، وأنه يريد له الكمال الممكن، وسـيجد للنصح لذةً أخرى، وسـيتلقاها بنفسٍ رضيّةٍ، وسيُدرك أن الأخ الحقيقيَّ هو مَن صدَقَه لا مَن صدّقه، وأن الأخ للأخ كاليد لليد، لا غنى لها عن الأخرى، لا حرمنا الله مرايا الصدقِ من إخواننا.

كسوف الأخلاق

١/٦/١٤٣٦هـ

تَذكرُ بعضُ كتبِ الأدب أن الخليفةَ العباسيّ المأمون كان في مجلســه، فنادى بالخادم: يا غــلام، فلم يجبه أحد، ثم نادى ثانيًا، وصاح: يا غلام، فدخل غلام تركي، وهو يقول: ما ينبغي للغلام أن يأكل ويشرب؟! كلما خرجنــا من عندك تصيح: يا غلام، يا غــلام، إلى كم: يا غلام؟! فنكس المأمونُ رأسه طويلًا، يقول الراوي: فما شككتُ أنه يأمرني بضرب عنقه، ثم نظر إليّ، فقال:

يا عبد الله، إن الرجل إذا حسُنتْ أخلاقُه ساءت أخلاقُ خدَمه، وإذا ســاءت أخلاقُه حسنت أخلاقُ خدمه، وإنّا لا نستطيع أن نُسيء أخلاقَنا لنُحسِن أخلاقَ خدَمِنا[1].

والمأمون بهذه الإجابة يريد أن يوصل رســالةً مضمونها: إنني لستُ مســتعدًّا أن أتنازل عن مبادئي وقِيَمي لأن الطرف الآخر أساءَ أخلاقه! أو بعبارة أخرى: أعاملُ النــاس بأخلاقي لا بأخلاقهم، وإلا لهويتُ إلى دَرَكٍ بعيد.

---

(١) المستطرف (ص١٢٨).

هذا النوع من الناس، الذي يُصاب بـ (كسـوف أخلاقي) جزئيٌّ أو كليٌّ، لا ينفك الإنسـانُ من التعامل معهم، إنْ اختيارًا أو اضطرارًا، وقد يَجِـد منهم ما يُثير الحفيظة، ويُخْرِجُ عـن الطَّور، فهو هنا في حاجة لضبط نفسه، والحفاظِ على المبدأ الذي هو جزءٌ من شخصيته وسلوكه.

يقول أحدُ الإخوةِ: كان عندي سـائق، وتعاملتُ معه بما أعتقده من مبادئ وقناعات راسـخة يمليها عليّ ديني أولًا، ثم ما أعلَمُه من سـيرة قـدوتي الأول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التعامل مع الخـدم وأمثالهم؛ فوجدتُ منه جحودًا ونكرانًا للجميل بعد مدةٍ من الزمن، فلامني بعضُ الأصدقاء على إحسـان الأخلاق معه، وأن هذا النوع من الناس لا يَصلح معه الفضل، بل الذي يناسبهم العدلُ والحزمُ، خاصةً في ظل تواصل السائقين والخدم وأضرابهم عبر وسـائل التواصل، ونقلهم تجاربِ بعضهم في أسـاليب الابتزاز المختلفة لمكفوليهم، وممارسـة ما يسـمى (ليّ الذراع)؛ ليضطر الكفيلُ إلى الاستجابة لمطالب رفع الراتب، وغيرها من المطالب المعروفة.

وفي المقابـل، وجد صاحبُنـا تأييدًا من بعض أصدقائـه، وقالوا له: لا تتنازل عن مبادئك لأجل هذا الكسوف الأخلاقي من قِبَل هذا العامل أو السائق، ولكن عليك بالاعتدال وعدم الإفراط.

فأيُّ الفريقين أولى بالصواب؟!

إن المتأمل للسيرة النبوية الشريفة، التي تنوعت فيها المواقفُ النبوية، مع العدوّ والصديـق، والصغير والكبير، والموافِـق والمخالف؛ يجد أن الهدي العام الذي سـلكه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمومًا هـو: امتثال ذلك التوجيه الربـاني: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[الأعراف:١٩٩]،

وأن ما ســـوى ذلك هو حالات اســـتثنائية، وما خـــبَرُ فتح مكة إلا أكبر شاهد على ذلك.

ويمكن التأكيد على ما ذكره الصديق المؤيِّد بأنه قد لا تَحْسُـــن المبالغة في الإكرام الذي لم يَعتدْ عليه هذا النوعُ من الناس، ما قد يَشْـــعرُ معه هذا الخادمُ أو الســـائقُ أنه حـــقٌّ واجبٌ متعيّنٌ على الطـــرَف المقابل، ثم يبدأ معه برفع ســـقف المطالِب التي لا تُطاق، مستغلًّا هذا الواقع الذي صار الحصول فيه على خادمٍ أو سائقٍ مناسِبَين من الأمور الشاقة والمرهِقة.

وبكل حال، فلكلّ حالةٍ لبُوسُها، والعاقلُ مَن قدّر الأنسب والأوفق في الأســـلوب، مع المحافظة عـــلى أدنى درجات التـــوزان الخُلُقي، وألا يَحمِلنا نَزَقُ هذا النوع مِن لؤماءِ الأخلاق أن نترك مبادِئَنا الراسخة.

شوكة قادت إلى الجنة

٧/ ٦/ ١٤٣٦هـ

الجنــة هي مبتغى كلُّ مؤمن، وغايةُ كل مســلم، ولا غرو! فبدخولها تنزاح الهموم، وتتبدّد المخاوف.

وحينما يتحدث أحدُهم عن الجنّة، فلا يكاد يتراءى للمستمع إلا تلك الصور العظيمة الجليلة من الأعمال والتضحيات الكبار، فتتراءى له تلك الأقــدامُ المنتصبةُ في هجعة الليل، وهي تتغنــى بآيات الكتاب، وتناجي الرب الكريم، وتلوح له تلك الشــفاه اليابســة، والبطونُ الضامرةُ مِن أثَــر الصوم في حرّ الهواجر، ويتخيل صورَ تلــك النفوس التي أُزهقت، والرقابَ التي طارت في ســبيل الله، وتتجلى لــه صورةُ ذلك العالِم الذي طــوّف البلاد، وجاب البلدان تحصيلًا للعلم، وجمعًا له، وتصنيفًا ودعوةً وتعليــمًا للناس! ولعمر الله إنها لأعمال جليلة، يوفّق الله لها من شــاء من العباد.

وكــون هذه من مهور الجنة لمن صدَق حــقٌّ لا ريب فيه، فإن الكريم الوهاب تبارك اسمُه، وجلّ ثناؤه جعل لدخولها أسبابًا أخرى يسيرة على من يسّرها اللهُ عليه، وبعضُها يكاد يتحقق له بشكل يومي.

لنتأمل في هـــذا الحديث حيث يقول الرســـول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مرّ رجلٌ بغصنِ شجرةٍ على ظهر طريق، فقال: والله لأنحينّ هذا عن المسلمين لا يؤذيهم؛ فأُدخِل الجنة**»(١).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن رجلًا كان فيمن كان قبلكم، أتاه الملَك ليقبض روحـــه، فقيل له: هل عملتَ من خير؟ قال: ما أعلم، قيل له: انظر، قال: ما أعلم شيئًا غير أني كنتُ أبايع الناسَ في الدنيا، وأجازيهم، فأُنظِر الموسر، وأتجاوز عن المعسر؛ فأدخله الله الجنة**»(٢)، وأمثال هذه النصوص كثير.

في واقعنـــا تجدّدت ســـبلٌ كثيرةٌ لنفع الخلق، ورفـــع الأذى عنهم من خلال التقنية الحديثة، التي ســـهّلت الوصول إلى الناس بسرعة مذهلة، يمكن للمرء أن يسهم فيها نشرًا وحثًّا.

أعرف أحدَ الشـــباب -يعمل في قطاع المقـــاولات- وفي مدينة بعيدة عن العواصم، حُبّبَ إليه دعوةُ الجاليات، وامتلأ قلبُه حدبًا وشـــفقةً على هـــذه الملايين التي تـــأتي لبلادنا، ولا يرجعون بدعـــوةٍ لأغلى ما نملك، وهو الإســـلام! فواجهتْه عقبةٌ، وهي: أنه ليس عنده علمٌ شرعيٌّ يؤهّله لذلك! لكنه استطاع تجاوز ذلك بتســـخير ما يملك من قدرة جيدة على التواصل مع المؤهَّلين دعويًّا وماليًّا، من مكاتب دعوية، وتجار وغيرهم، فبدأ يعمل بجهد دؤوب، واستعان على تسويق مشروعه بمعرّفات بعض المشـــاهير في تويتر، وانطلقت حلقاتُ دعوة الجاليات في بعض القنوات ذائعة الصيت؛ فأســـلم على يديه حتى الآن آلاف الأشخاص مِن مختلف

(١) رواه مسلم (رقم١٩١٤).

(٢) رواه البخاري (رقم٣٤٥١)، ومسلم (رقم٢٩٣٤).

الجنســـيات، ويخبرني أن طموحَه أن يسلم على يديه ٣٠٠ ألف شخص! ويزداد عجبك أنه يدير مشروعه وهو في مدينته التي يســـكنها بعيدًا عن ضجيج المدن الكبرى.

هذا العمل من حيث هو عملٌ جليلٌ، ولكن مرادي من الاستشـــهاد به، هو تســـخير هذه الوســـائل التي جعلت عملًا كهـــذا -مما يحتاج إلى ملايين الريالات في العقود الماضية، صار بفضل الله ثم هذه التقنية- يدار بسهولة، وبأقل كلفة.

ومن صور هذه الأعمال الجليلة التي تدار بســـهولة: تســـويق أخبار المشروعات الخيرية المتعثرة عبر وسائل التواصل، فكم نفع الله بها، وكم قُضيت مشروعات بسبب تغريدة أو واتس أب!

وبالجملة، فمن امتلأ قلبُه شـــوقًا للجنة، لم يستقلّ أي عملٍ يقوم به، ولو كان في نظر الناس صغيرًا؛ لأنه يدرك أن أي حســـنة ســـتضاف إلى رصيده الأخروي، مســـتحضرًا قول الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾[الزلزلة:٧].

تعلمتُ من ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(١)

١٣/٦/١٤٣٦هـ

الذين منَّ الله عليهم بالجلوس عند شيخنا العلامة محمد بن صالح العثيمين (ت١٤٢١هـ) فترةً من الزمن، وإن قلّت، أو استمعوا إلى دروسه المسجّلة؛ أدركوا أنه لم يكن مجرد عالمٍ يُلقي دروسَه، ثم ينصرف إلى حيث يبدأ الدرس التالي، بل كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنموذجًا للعالم الرباني؛ الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره، ويربي بفعله قبل قوله.

وهذا العلَمُ الماجدُ كُتِبَ عنه الكثير شعرًا ونثرًا، لكن الكتابة التي تُعْنى بإبراز معالم القدوة والتأسّي به لا تزال قليلة، مقارنة بما كُتب في الجوانب الأخرى، ومقارنة بمنزلته العلمية، ومكانته في الأمّة.

ولا ينبغي في ترجمة مثله أن تُختزل سيرتُه فيما يشترك معه كلُّ من له أدنى مشاركةٍ في التعليم -مِن ذِكر المولد والوفاة والأشياخ والتلاميذ والمصنَّفات- بل ينبغي تسليطُ الضوء على الجوانب الربانية ومواضع القدوة في شخصيته، فهي الأهم.

وأنا حين أكتب فلا أزعم أنني من أكثر الناس قربًا منه، أو جلوسًا بين يديه، ولا بالذي يســتطيع كتم آثار العاطفة والمحبة التي تجذّرت عروقُها فيَّ، وكان يسقيها بماء النصح والتوجيه، والرعايةِ الأبوية لتلميذه الصغير، من خلال علاقةٍ امتدت أكثر من عشر سنوات، كلا، لكنني أظنّ أن تلك السنوات أضحتْ مشجِّعةً على الكتابة عن بعض تلك المعالم المؤثّرة، التي يلمســها كلُّ من عاشره، وتتلمذ له، ولحظَ مفاتيح التميز في شخصيته، لعل الله تعالى أن ينفع بها، وهي إشــارات فحسب؛ إذْ التفصيل والبسط لا تناسبه أمثال هذه المقالات.

ولعلي ألخص هذه الوقفات في المعالم الآتية:

المعْلمُ الأول: وضوح الهدف:

فلقد كان الهدف الأكبر عند شــيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو طلبُ العلم وتعليمُه، واضحًا في نفســه من بواكير شبابه، ظهر ذلك في مواقف كثيرة، لعل من أشــهرها: اســتعفاؤه من القضاء حين عُرِضَ عليه من قِبَلِ مفتي الديار الســعودية في وقته الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ (١٣٨٩ هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ وألحّ على شــيخنا في ذلك، بل أصــدر قراره بتعيينه رئيسًــا للمحكمة الشرعية بالأحســاء، فطلب منه الإعفاء، وبعــد مراجعات واتصالات سَمح المفتي بإعفائه من منصب القضاء.

ولا أحســب هذا الموقف من شــيخنا إلا لأنه يرى أن للقضاء -مع شرف مكانته- تبِعةً قد تشغله عن هدفه الذي رسمه لنفسه -وهو تعليم العلمِ الذي بذل جهدَه في تحصيله- والعلم يحتاج إلى تفرّغ كثير، وصفاءً في الذهن، لا يتأتّى في الغالب للمنشغل بالقضاء.

ومن ذلك: أنه لما ازدادت شـــهرتُه -خصوصًا بعد ســـنة ١٤٠٠هـ- وكثر قاصدوه من الآفاق؛ تخفّف من إلقاء المحاضرات العامّة جدًّا، وركّز على دروسه العلمية في الجامع، وصار لا يشارك إلا في حضور مناسبات تكريم حفّاظ القرآن في منطقة القصيم فقط، اللهم، إلا إن وافق ما سبق وجـــوده في اجتماعات هيئة كبار العلماء في الطائـــف والرياض، أو وافق وجوده في مكة المكرمة، كل ذلك انجماعًا منه على دروســـه، وتركيزًا على تحقيق هدفه الذي عاش من أجله.

وثمـــرةُ هذا المعْلم ظاهرةٌ جلية في حياتـــه، تمثلت في أكثر من ٥٠٠٠ ســـاعة صوتية -فضلًا على ما لم يُســـجل من قبل أو ضاع-، استثمرت لاحقًا في تزويد قناة فضائية حملت اســـمه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إضافة إلى انتفاع عدد كبير من طلاب العلم -من مختلف بلدان العالم- الذين تخرّجوا به، ونفع الله بكثير منهم.

إن هذا المعْلم في شخصية شـــيخنا -رحمه الله- قد يَغيب استحضارُه عن بعض طلاب العلم، وهو في بدايات حياته ونشاطه، فقد يبدأ في كلية شرعية، بل قد يتخرج فيها، والهدف عنده غيرُ واضح، فتذهب عليه زهرةُ عمره في التنقـــل بين مجالاتٍ خيرية متنوعة، وهي وإن كانت فاضلة؛ إلا أنها لا تزال تَنْحتُ من شـــجرة زمانه، وتَذْهَبُ أيامُه وهو لم يبرز في سبيلٍ من هذه السُّبل، مع قدرته على التميّز.

أعرفُ أحدَ طلاب العلم -وهو من طلاب شـــيخنا- ممن حدّد هدفَه بطلب العلم، عرَضَـــتْ عليه عددٌ من الجهات الخيريـــة إغاثية، وتعليمٍ للقرآن، وأمثالها- عرضت عليه الانضمام لها؛ فاعتذر، فسُئل عن السبب؟

فقال: حدَّدتُ هدفي مبكّرًا، وليس لديّ من الوقت والقُدُرات ما يمكنني معـــه القيام بها جميعًا، فاخترتُ ما حُبّب لي مـــن طلب العلم، والرغبة في تعليمه ونشره، فتحقق له ذلك فيما أحسب.

والعِبرة من هذا المعْلَم في شخصية شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أن يحدِّد الإنســـانُ هدفَه مبكّرًا، وينظر في المجـــالِ الذي يُتقنه، ويبدعُ فيه، وليصحّح النيةَ في نفع نفســـه وأمته، وليبشر بالتوفيق، وصدق الله: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾[الأعراف:١٦٠].

تعلمت من ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(٢)

١٤٣٦/٦/١٩هـ

أشرتُ في الجزء الأول من هذه السلسلة (تعلمت من ابن عثيمين (١)) إلى أن (وضوح الهدف) كان من المعالم البارزة في شخصية شيخنا رحمه الله-، وأتابع في هذا المقال ذكر أهم مفاتيح التميز في شخصيته، ومنها:

المعْلمُ الثاني: الثبات على المنهج والهدف الذي رسمه لنفسه:

الثبات على المنهج الحقّ مما امتدح الله به خيارَ هذه الأمة، فقال عن الصحابة: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[الأحزاب:٢٣]، وهو أحدُ صفات الأئمة الذين قال الله فيهم: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾[السجدة:٢٤].

وهكذا كان شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فلم يغيّر، ولم يبدّل، بل صبر، وثابر، موقنًا أن الحقّ في هذا الدين بمصدريه العظيمين: الكتاب والسنّة، على فهم سلف هذه الأمة، الذي نقله إلينا، ودعا إليه - على مرّ القرون- أئمةٌ

كبارٌ، أوذوا في ســبيل الدعوة إلى هذا المنهج، فمنهم من ضُرِبَ، ومنهم من غُرِّبَ عن وطنه، ومنهم من سُــجِن، ومنهم من قُتِل، في سلسلة من الابتلاءات التي سطّرها التاريخ بأحرفٍ من نور.

وشــيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ أدرك في مقتبل شــبابه انتشــار عددٍ مــن المذاهب والدعــوات المنحرفة، التي صَرفت عددًا غير قليــل من لِداته وأترابه في ذلك الوقت، أو أثّرت فيهم سلبًا من جهة القناعة بالطريق الذي سلكه، وهو طريق العلم والتعليم، بل ووُجِد من المنتســبين إلى الإســلام -في بعض البلاد- من يُعلن أن سبب تأخرنا هو التقيّد بالإسلام! عياذًا بالله.

وشــيخنا وإن لم ينله ما أشرتُ إليه من أذى حسّيٍّ مباشر -كالسجن والــضرب- إلا إنه ابتُلي ببعض التُّهم في عقيدتــه في أول القرن الهجريّ الحالي، التي كان منبعُ بعضها الهوى والحســد، كدّرت عليه خاطرَه فترةً من الزمن، وكان أثر تلك القالةِ يُرى على وجهه، ويُلحَظُ في نفوس بعض النــاس، حتى أفضى مرةً إلى أحدِ طلابــه في كلية الشريعة وأصول الدين -التي كان يدرس فيها- وقال: يا فلان، سيظهرُ الله الصادق منّا. حدثني بذلك صاحب القصة الذي خاطبه شيخُنا بتلك الكلمات.

وهذا ما كان، فلم يزدد شيخُنا بعدها إلا رفعةً وظهورًا حتى توفاه الله وهو أحد أئمة المســلمين في العلم، وأحد المرجعيات العلمية البارزة في الفتوى، وقصَدَه الناس من كلّ مكان في العالم.

وأحســبه -بعد تلك الحادثة وما ســبقها- ممن انطبقت عليه مقولة الإمام الشــافعي -حين ســأله رجل فقال-: يا أبا عبــدالله، أيما أفضل للرجل أن يمكّن أو يُبتلى؟ فقال الشافعي: لا يمكّن حتى يُبتلى.

ومن صور ثباته على منهجه -وهو وثيق الصلة بوضوح الهدف عنده: أن شيخنا أدرك في بواكير شبابه رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملةً من الصوارف الدنيوية التي بهرتْ زهرتُها وبريقُها فئامًا من النـــاس، فآثروا الوظائف والتجارة على ما كانـــوا فيه من الاشـــتغال بالتعلّم والتعليم، وهذا لا يُـــذمّ به صاحبُه بطبيعة الحال، لكنّه مما يمدح به من آثر الفاضل على المفضول، وصبر على تحصيل ثمراته.

ومَنْ تتبّع مصنفات شيخنا، أو سمع مجالسه العلمية؛ رأى أن الحديث عن هذه القضية يتنوع، ويظهر في كلامه بأســـاليب شتى، تُلْمسُ منها أثرُ التجربة بهذه المسألة، وإن أنسى فلا أنسَ قسمات وجهه، وتأثّره وهو يعلق -في شرح الواســـطية- على مقالات الفِرَق المنحرفة في أبواب الصفات، وكيف ضل من ضلّ منهم مع قوة ذكائه، وسعة اطلاعه، ثم ختم كلامه بسؤال الله الثبات على الحق، وألا يزيغ القلوب بعد هداياتها.

وفي هذا المعْلمِ عبرةٌ، فلأن كانـــت الصوارف في عهده رَحِمَهُ ٱللَّهُ كثيرة، فهي في عصرنا اليوم أضعاف ما كانت عليه في عهده؛ من مروج العهود، وازدياد التفرق، وكثرة أسباب الفتن، والتباس الحق بالباطل على كثيرين، ما يوجب على العبد مزيدًا من الضراعة واللجوء إلى الله بالهداية والثبات، وللحديث صلةٌ إن شاء الله.

تعلمت من ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(٣)

٢٥/ ٦/ ١٤٣٦هـ

المعْلمُ الثالث[1]: العناية بالقرآن حفظًا وفهماً وعملاً:

في بدايات مـا يُعرف بـ (الصحوة) في أوائـل القرن الهجري الحالي، كانـت العنايةُ بالحديث الشريـف -تحقيقًا ونشرًا وحفظًـا- قد بلغت غايتها، بعـد عقودٍ وربما قرون من الركود العلمـي العام، وفي الحديث بشـكل أخص، وكان من مظاهر ذلك: إقبالُ عددٍ كبير من طلاب العلم على هذا التخصص، هذا الإقبال كان عند كثيرين على حسـاب الاهتمام بالقـرآن الكريم من حيث الفهم والتدبر، فكان شـيخنا يلحظ ذلك في الجو العام لعموم الحركـة العلمية في ذلك الوقت، ويلحظه في عددٍ من طلاب العلم الذين قصدوه من آفاق شتى، وكانوا يَحضرون دروسه.

---

(١) أشرتُ في الجزءيـن الأول والثـاني من هذه السلسـلة إلى معلمين مـن معالم التميز في شـخصية شـيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهما: (وضوح الهدف)، و(الثبات على المنهج والهدف الذي رسمه لنفسه)، وأتابع في هذا المقال ذِكر بعض تلكم المعالم.

هذه الملاحظة المســتمرة جعلتْ شــيخَنا لا يفوّت التنبيه على العناية بالأصــل الأعظم للدِّين، ومن تلكم الكلمات التي لا أزال أتذكرها تلك المقابلةُ التي أُجريَت مع شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ ضمن سلسلة (على طريق الدعوة) -قبل عشرين ســنة أو أكثر- وكان من أبرز ما رسخ في ذهني كلامُه عن هذه المسألة بشكل يلمس منه السامعُ خوفَه من اختلال الميزانِ عند بعض طلاب العلم، حيث تجده يُمضي الأيامَ والســنين في علم الحديث، ثم إذا جاء القرآنُ وجدتَه مقصِّرًا في مدارســة معانيه، وتدبر آياته! وكان شيخنا قــد أبدى فرَحَه بتلك العناية بالسُّــنة، لكنه لم يُخــفِ ألمه من التقصير في جانب العناية بتفسير كلام الله وتدبره.

وأما عنايتُــه وتوجيهه طلابَ العلم لتدبره؛ فكُتبه وتوجيهاته طافحةٌ بهذا، وأنتَ حــين تقرؤها تجدها كلــماتٍ فيها روحٌ، ونابعــةٌ من قلبٍ مجــرّب، قد تكون قصيرة، وســهلة في تراكيبها، لكنــك تلمس فيها لغةَ الصدق والنصح، كقوله: «اللهَ الله يا إخوان، بتدبر القرآن وتفهم معانيه، والتقرب إلى الله تعالى به، والعمل بما فيه، فهو -والله- سعادتكم في الدنيا والآخرة».

ويلحظ طالبُ العلم هذا المعنى حاضرًا في تعليقاته على الآيات، سواء فيما قصد به تفسير كتاب الله، أو كان ضمن كتابٍ مصنَّف وردت فيه آيةٌ من الآيات، ومن ذلك حين علّق على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[القمر:٢٢]، قــال: «أي: يسّر معانيه لمن تدبّره، ويسّر ألفاظَه لمن حفظه، فإذا اتجهتَ اتجاهًا سليمًا للقرآن للحفظ يسّره اللهُ عليك، وإذا اتجهتَ اتجاهًا حقيقيًّا إلى التدبّر وتفهّم المعاني يسّره الله عليك ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا

﴿ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ و(هل) للتشويق، يشوّقنا اللهُ عَزَّوَجَلَّ إلى أن ندكر القـــرآن، فنتعظ به، جعلنا الله ممن يتلونه حق تلاوته لفظًا ومعنى وعملًا، إنه على كل شيء قدير»[1].

وهذه العناية بهذا الأصل العظيم، ظهر أثرُها على تفسيره لما تيسر من القرآن، وعلى فتاويه، وكلماته، فضلًا على ما كان عليه شيخُنا من ملازمة وِردِه اليومـــي، فقـــد كان يختم كلّ عشرة أيام في غير أيام المواســـم، وفي رمضان يختم كل ثلاث.

ومن صـــور عنايته بهذا الأصـــل العظيم: أنـــه كان إذا دُعي لبعض المناســـبات طلب من أحـــد الحضور أن يقرأ آيات مـــن القرآن، ثم علّق عليها، وهكذا دأبه في لقائه الأسبوعي، فإن تعليقَه على جزء عمّ المطبوع، إنما هو مِن جمْع ما قاله في تلك المجالس، فخرج منها ذلك الكتاب الذي نفع اللهُ به نفعًا كثيرًا.

إن هذا المنهج العملي الذي سلكه شـــيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ في دروسه وعموم المناســـبات التي يحضرهـــا، كان له أثرٌ في كثير ممن تلقّـــى عنه، في العناية بالقرآن، مـــع اختلاف تخصصاتهم الأكاديميـــة، أو مناصبهم الوظيفية، ولنِعْم الإرث هذا.

وخليق بطلاب العلم -مهـــما كان تخصصهم الأكاديمي الدقيق- أن يكون لهم نصيبٌ كبيرٌ من العناية بكتاب الله، فهو أصلُ العلوم ومنجمها، وأُسّها وأساسها.

---

(١) تفسير العثيمين: الحجرات - الحديد (ص٢٨٤).

وإن ممـــا يُزري بطالب العلم: أن يكون مقـــصّرًا في حق القرآن تلاوةً وفَهمًا، بحجة أن تخصصه ليس في (قسم القرآن)، أو (القراءات)! فالقرآن كتابٌ يتجاوز كل التخصصات. وللحديث صلةٌ إن شاء الله.

تعلمت من ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(٤)

١/ ٧/ ١٤٣٦هـ

المعْلمُ الرابع[١]: حبّه لنشر العلم، واغتنام الفرص لتبليغ الشريعة:

كان يمـــرّ بي في بعض التراجم في الثناء عـــلى أحد العلماء: «أن أوقاته معمـــورةٌ ببث العلـــم»، أو «ليس له همّ إلا في نـــشر العلم»، ونحو هذه العبارات، التي رأيتُها عيانًا في حياة شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

لقـــد كان حبّ العلم وتبليغُه يَسري في عروقـــه، ولا تحين فرصةٌ إلا ويهتبلها في نـــشره، مع التزامٍ قـــوي بالوقت الـــذي خصّصه للناس في الإجابة عن أسئلتهم في الهاتف.

ومـــن صور هذا الحب لنشر العلم: أنه كان إذا ســـافر من بلده عنيزة يضع (المجيب الآلي) الذي يرد على الاتصالات -وذلك قبل اســـتعمال

(١) أشرتُ في الجـــزء الأول والثاني والثالث من هذه السلســـلة إلى ثلاثة من معالم التميز في شـــخصية شـــيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهي: (وضوح الهدف)، و(الثبات على المنهج والهدف الذي رسمه لنفســـه)، و(العناية بالقرآن حفظًا وفهمًا وعملًا)، وأتابع في هذا المقال ذِكر بعض تلكم المعالم.

الجوالات-، ويبيّن رقـــم الاتصال الجديد في المنطقـــة التي ذهب إليها، ســـواء في مكة المكرمة أم الطائف أم الرياض، مع أنه كان يسعه الاكتفاء بما يتلقاه من أسئلةِ الناس واستفتاءاتهم في تلك المناطق التي يسافر إليها، لكنها الدِّقة والالتزام، والشعور بمهمة البلاغ عن الله ورسوله.

وأتذكر مرةً أنه زاره بعضُ القضاة في إحدى زياراته للرياض-وكنتُ شاهدًا لهذا الموقف في منزل أخيه الشيخ عبدالرحمن بن صالح العثيمين- فطلبوا منه أن يخصِّص كل الوقت لهم -أي وقت العصر-، وكان شيخنا قد أحـــال المتصلين على هاتفه على ذلك الوقت الـــذي زاره فيه القضاة، فقال: لا أســـتطيع ذلك، وقد أحلتُ الناس على هذا الوقت، ولكن لكم سؤال وللمتصلين سؤال. فعجبتُ من هذه الدقّة! والحرص على الالتزام بما سجّله، ووعد به.

وكان من عادته إذا جلس في مجلس عام، أن يطلب من أحد الحضور -وخاصة من صغار الســـنّ- أن يقرأ القرآن، ثـــم يعلّق على الآيات، ثم يستقبل الأسئلة.

ومن أشدّ المواقف تأثيرًا، التي شاهدها الملايين من الناس، وسمعوها، تلكـــم الأيام الأخيرة التي درّس فيها في المســـجد الحرام في رمضان عام ١٤٢١هـ، والتي بلغ فيها المرضُ والألم من جســـده مبلغه، وكان يؤدي الـــدروس بصعوبـــة بالغة، وكان الأطبـــاء يؤكدون عـــلى أهمية راحته، فيخبرهـــم أن راحته في التدريس! بل حدّث أحـــدُ أولاده أنهم ذهبوا به مرةً في صباح أحد أيام العشر إلى مستشفى الملك فيصل التخصصي بجدة بسبب تردّي صحته، فلما كشفوا عليه، طَلبَ الرجوعَ به إلى مكّة المكرمة،

فوافق الفريق الطبي بعد إلحاح وضغط من شـــيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ كل هذا كي يرجع إلى مكة المكرمة ليلقي درسه لذلك اليوم.

لقـــد كانت هذه المواقف -وأمثالها كثير- تعـــبّر أبلغ التعبير عن هذه الحال التي كان عليها، يســـوقه -إضافة إلى حب نشر العلم- الخوف من معرّة كتْمه، وهو الذي صرّح بذلك مرارًا، ومن ذلك قوله: «والله نخشى من الفتيا، ولولا أن الإنسان يخشى من كتمان العلم، أو أن السائل يذهب إلى إنســـان جاهل، ويفتيه؛ لكان الإنسان يتوقف عن الفتيا ليَسلَم، لكن من اســـتُفتي وعنده علم فإن عدم إقدامه على الفتيا ليس بسلامة، بل هو عطب»[1].

ولقد رأيتُ أثر هذا البذل والعطاء المتدفق على ســـلوك بعض طلابه، الذيـــن تصدّروا بعد ســـنوات لنفع الناس وإفتائهـــم، وتدريس العلوم الشرعية، فلقد رأى الناسُ منهم بذلًا مشـــهودًا للعلم في كل الوســـائل المتاحة، ســـواء في المســـاجد أم في الفضائيـــات أم في مواقـــع التواصل الاجتماعي وغيرها، فبارك الله فيهم، ورحم الله شـــيخنا، وجزاه عنا خير الجزاء، وللحديث صلةٌ إن شاء الله.

(١) دروس الحرم المدني (٤/ ٤).

تعلمت من ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(٥)

٧/ ٧/ ١٤٣٦هـ

المعْلمُ الخامس[١]: التثبت في النقل والحكم:

النصوص الواردة في التثبت كثـيرة، وقد خوطب بها جميع المؤمنين؛ لخطورة التعجل في النقل والحكم قبـل التثبت، ويتأكد هذا في حق أهل العلم طلابًا وعلماء.

وأما ما يخصّ منهج شـيخنا في هذا الباب؛ فهو مـن أكثر مَن رأيت تثبتًـا في الأمور كلهـا، وخاصة فيما يتعلق بالمسـائل العلميـة، أو التي تتعلـق بالمنكرات العامة أو الخاصة، وحديثنا هنا عن المسـائل العلمية:

أذكر أن الشـيخ مرةً حصل منه سهو في نِسبة لفظٍ من ألفاظ الحديث إلى البخاري، فذكرَ له أحدُ الطلاب هذا السهو بعد انتهاء الدرس، ولكن الشيخ قال له: تثبت! فرجع من الغد، فذكرَ له الطالبُ أنه تأكد منه، فقال

---

(١) أشرتُ فيما سـبق إلى أربعة معالم مما تميزت بها شـخصية شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهي: (وضوح الهدف)، و(الثبات على المنهج والهدف الذي رسـمه لنفسـه)، و(العناية بالقرآن حفظًا وفهمًا وعملًا)، و(حبّه لنشر العلم واغتنام الفرص لتبليغ الشريعة)، وأتابع في هذا المقال ذِكر بعض تلكم المعالم.

له شـــيخنا: هل رجعتَ إلى الكتاب الفلاني؟ قال: لا، قال: فراجعه، فلما كان من الغد قال له: لقد رجعت إلى ذلك الكتاب، فعندها بيّن الشـــيخ للطلاب أن أحد الطلاب نبّهه إلى أنه وَهِمَ في عزو ذلك اللفظ للبخاري، وأن الصواب أن الحديث في مسند أحمد، وليس في البخاري.

وهذا المســـلك ظاهر -أيضًا- عندما يســـأله أحدٌ فإنه يستوضح من سؤاله كثيرًا حتى يكون الجواب مطابقًا للسؤال، ومن استمع إلى برنامجه (سؤال على الهاتف) تبين له هذا بوضوح.

ومن مظاهر تثبت شـــيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه إذا سُئل عن ســـؤال له ارتباط ببعض التخصصـــات الطبية أو غيرها؛ فإنه لا يُفتي حتى يتأكد بنفســـه من أهل الاختصـــاص، أو يعلِّق الحكم على نظر أهل الاختصاص، مثل جوابه عن أسئلة النساء التي تتعلق بجوانب طبية؛ فيقول: إن قرّر الأطباء أنه لا يضر فلا بأس به، أو يقول: سألنا الأطباء، فذكروا كذا وكذا، وربما سُئل عن بعض الأمور الإدارية، فاتصل بوزارة الخدمة المدنية.

وأذكر مرّة أنه سُئل -وأنا أسمع- عن حكم قطع الإشارة في الأماكن التي لا يوجد بها أي سيارة، في مناطق شبه خالية من الحركة؟ فقال: سألْنا المســـؤول عن المرور؟ فقال: بل يجب عليهم الوقوف ولو لم يكن عندها أحد، فعلى هذا يجب الوقوف عندها.

ومن مظاهر التثبت عند شيخنا: التثبت في الأخبار العامة أو فيما يُطلب منه من إنكار المنكرات، وكذلك فيـــما يتعلق بتوثيق الناس (التزكيات)، وقد أكسب هذا المسلك ثقلًا وقوة لكلامه، فبمجرد ما يُنسب الكلام عن الشـــيخ ابن عثيمين، اطمأن الناس إلى صحة الخبر، وإن زكّى أحدًا وثِق الناسُ به. وللحديث صلةٌ إن شاء الله.

تعلمت من ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(٦)

١٣/ ٧/ ١٤٣٦هـ

المعْلمُ السادس[1]: عنايته بالتحصيل العلمي لطلابه:

درجَ عددٌ من العلماء على إلقاء الدرس دون مناقشة، وربما سلك بعضُهم مسلك التعليق على كتابٍ ما، فإن ورد سؤالٌ من الطلاب وإلا مضى الشيخُ حتى ينتهي من كتابه، فلا يَدري مَن الذي فَهِم، واستوعب ممن ليس كذلك! ولم يكن شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرتضي هذا المسلك أبدًا، بل كان يرى أن هذه طريقة عقيمة جدًّا!

وقد أكّد -حين سُئل عن وصيته للمعلّم- على أهمية مناقشة المعلّم للطلاب في جوابٍ طويلٍ، أقتطف منه هذه الجملة المعبّرة عن منهجه في

---

(١) أشرتُ فيما سبق إلى خمسة معالم مما تميزت بها شخصية شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهي: (وضوح الهدف)، و(الثبات على المنهج والهدف الذي رسمه لنفسه)، و(العناية بالقرآن حفظًا وفهمًا وعملًا)، و(حبّه لنشر العلم واغتنام الفرص لتبليغ الشريعة)، و(التثبت في النقل والحكم)، وأتابع في هذا المقال ذِكر بعض تلكم المعالم.

هذه القضية بوضوح، حيث «مناقشة الطلاب فيما ألقاه عليهم سابقًا، أما أن يأتي يَقرأ الشيءَ عليهم قراءةً، ولا يدري مَن فهم ممن لم يفهم! ولا يناقشهم فيما مضى! فإن هذه الطريقة عقيمة جدًّا، لا تُثمر ثمرًا، ولا تكون نتيجتها طيبة»[1].

ومن صور عنايته بتحصيل الطلاب: حرصه على وضوح العبارة، وسهولة الأسلوب في الشرح، وإذا شعر الشيخُ أن بعض الطلاب لم يفهم سألهم، فإن لم يفهموا أعاد.

وكذلك حرصه رَحِمَهُ ٱللَّهُ على غرس روح المناقشة للمسائل من غير فرض الرأي -فيما يمكن فيه النقاش- وكان أحيانًا يَطرح المسألةَ على الطلاب، والغالب أنهم ينقسمون إلى قسمين -كما هو الحال في أكثر الأحكام العملية- ثم إن الشيخ بعد ذلك يقول لهم: دعونا ننظر في دليل هؤلاء وهؤلاء، ثم يبدأ يناقش، ثم يرجِّح بناءً على ذلك التحليل والتفصيل للأقوال، فيقتنع الطالبُ حينئذٍ من سبب الترجيح، ويعتاد على هذه الطريقة.

لقد كان بإمكان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يَعرِض الأقوالَ، ويرجّح، ثم يمضي في شرح المسائل -وهو من حيث إنهاء المتون أسرع للطالب- ولكنه لم يَفعل، وكان كثيرًا ما يردِّد في الدرس قاعدةً في هذا الباب، وهي: إذا رجّح الإنسانُ قولًا على قول؛ فلا بد مِن ذِكر سبب الترجيح، والإجابة عن دليلِ القول الآخر.

---

(١) كتاب العلم (١٠١).

وهذا الأســـلوب الذي انتهجه الشـــيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو أسلوبُ الإقناع والمحاورة؛ اســـتفاد منه كثيرٌ من الناس، فضلًا على طلابه الذين لازموه فترةً من الزمن.

وقد كتب أحدُ الطلاب[1] -الذين درّســـهم شيخُنا في المعهد العلمي بعنيـــزة- مقالًا يتحدث فيه عن موقفٍ حصل له مع الشـــيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عام ١٣٨٠هـ تقريبًا، وخلاصة الموقف الـــذي ذَكَره أنه قال: «كنا ندْرس في الصف الأول المتوســـط في المعهد العلمي، وكان الناسُ في ذلك الوقت يتحدثون عن وصول الإنسان للقمر، هل هو ممكن أم لا؟ وهل الحديث عن هذه المســـألة ســـائغٌ شرعًا أم لا؟ فلما دخل علينا الشيخُ طرح علينا الســـؤال الآتي: هل تعتقدون أنهم ســـيصلون إلى القمـــر؟ قال الطلاب كلهم: لا! يقول الكاتب: إننا قلنا ذلك مجاملةً وهيبةً من الشيخ، وأكثرنا من داخل نفسه متحمّس للتصديق بهذا الخبر، يقول: إن الشيخ لم يعجبه هذا الجـــواب مِنّا، واقترَحَ علينا أن نُناقش الأمر؛ فشرع يطرح الأســـئلة علينـــا واحدًا واحـــدًا، وفي أثناء ذلك قام أحدُ الطـــلاب، فقال: نعم، يا شـــيخ، يمكن أن يصلوا، هنـــا توقّعنا أن يَغضب الشـــيخُ على الطالب، ويُعاقبه! غير أن الشـــيخ التفتَ إلينا، وسألَنا عن جواب زميلنا، وطلب منّا أن نُناقش قولَه، وهل أحدٌ منكم يوافقه على رأيه؟

لقد كانت الهيبةُ من الشـــيخ تجعلنا نؤكّد أن زميلنا قد أخطأ، ووهِم، عندها قال الشـــيخ: تريدون رأيي؟ فقلنا بصـــوتٍ واحد: نعم، ثم ذكر

(١) هو الدكتور عبدالله الغذامي.

الشـــيخُ رأيَه في المسألة... إلخ[1]، فيعلّق هذا التلميذُ قائلاً: لقد استفدتُ من هذا الموقـــف فائدةً عظيمة، وهي: التربية على الروح الحوارية، حيث يَفتح مجـــالًا للتفكير والتدقيق والتمحيص، ومشـــاركةِ كلِّ الأطرافِ في معالجةِ الإشـــكال، وتحريـــكِ عقولهم في البحـــث.. وللحديث صلةٌ إن شاء الله.

❋

(١) مقـــال د. عبدالله الغذامـــي ١٦-١٧ في ملحق الأربعـــاء الصادر عن جريـــدة المدينة ٢٩/ ١٠/ ١٤٢١هـ.

تعلمت من ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(٧)

١٩/ ٧/ ١٤٣٦هـ

المعْلمُ السابع[١]: حِرصُه على تطبيق السنة في أموره كلها:

لم يكن شيخُنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلّمًا بقوله فحسب؛ بل كان يَقرن ذلك بالعمل، والحرص على تطبيق السُّنن وإن دقّت؛ فصار عالمًا ربانيًّا.

وأنت حين تقرأ له كلامًا في هذا الموضوع؛ فإنك تجد له وقعًا كبيرًا في نفسك؛ لعلمك أنه يطبّق ما يقول، ومن ذلك قوله: «العلم من دون تربية يكون ضررُه أكثر من نفْعه، لكن مع التربيـــة يكون العلم مؤديًا لنتيجته المقصـــودة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾[آل عمران:٧٩]، هذه فائدة العلم؛ أن يكون الإنسان ربانيًّا، بمعنى مُرَبِّيًا لعِبادِ الله على شريعة الله»[٢].

---

(١) أشرتُ فيما ســبق إلى ســتة معالم مما تميزت بها شخصية شــيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهي: (وضوح الهدف)، و(الثبات على المنهج والهدف الذي رســمه لنفســه)، و(العناية بالقرآن حفظًا وفهــمًا وعملًا)، و(حبّه لنشر العلم واغتنام الفرص لتبليغ الشريعة)، و(التثبت في النقل والحكم)، و(عنايته بالتحصيل العلمي لطلابه) وأتابع في هذا المقال ذِكر بعض تلكم المعالم.

(٢) انظر: كتاب (العلم) للعثيمين (ص١٨٥).

والأمثلة التي تُجلّي هذه الحقيقة كثيرة:

منها: أنه حينما يُقبل على المسجد ومعه أحدٌ يتحدث، فإنه عند دخوله المســـجد يقدِّم اليمنى، ولا يترك دعاء الدخول، ولو كان ذلك الشخص يتحدث، وكذلك عند الخـــروج، ولا أذكر أنني رأيتُه يدخل الصلاة من دون سِواك.

ومنهـــا: أنه كان حريصًا على تنويع الســـنن التـــي وردت فيها بعض العبادات، كما في صفة التسبيح بعد الفرائض، وهو بذلك يترجم ما يقرره في دروســـه في فوائد تنويع التطبيق: حفظ العلمُ، وتطبيق الســـنة، وكسر الإلف الذي يُذْهبُ الاستحضار للأذكار.

ومنهـــا: أنه كان يحرص على أداء الســـنة الراتبة في بيتـــه ما لم يَعرض عارض.

المعْلمُ الثامن: حرصه على الوقت:

وهذا شيءٌ مُجمَع عليه عند كل مَن عرَف شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد رأيتُ أثرَ هذا المسلك في بعض طلابه الذين نفع اللهُ بهم فيما بعد.

ومِن مظاهر هذه العنايـــة بالوقت عنده رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ترتيب وقته وجدولِه اليومـــي، وضبطه لتوقيت الـــدروس، ولعدد الأســـئلة التي تَعرِض في الدرس، وقد كان غالبًا لا يســـمح بأكثر من ثلاثة أســـئلة عن الموضوع الواحد.

ومـــن ذلك: عنايته بضبط المواعيد، وكان يربي طلابَه على ذلك، ومن ذلك ما حدّث به فضيلةُ أ. د. عبدالله الطيار: دعاني الشيخُ عام ١٤٠٣هـ

لتناول وجبـــة الغداء، وقال لي: الموعد الســـاعة الثانية ظهرًا، فحصل لي ظرفٌ جعلني لا أصل إلى الشـــيخ إلا في الساعة الثانية وعشر دقائق، فلما وصلتُ وإذا بالشـــيخ راكب الســـيارة، فقلت: إلى أين يا شيخ؟! فقال: الأولاد عندكم، وتغدَّوا معهم، فقلت: يا شـــيخ، عفا الله عنك، نحن لا نريد الغداء، وإنما نريدك أنت، فقال: هذه المرة سأعفو عنكم، ولكن المرة الثانية لا تتأخر[1].

ومـــن مظاهر حرص الشـــيخ على الوقت: أن فـــترةَ ذهابِه من البيت إلى المســـجد كانت عامرةً بقراءة حزبه من القرآن، ولم يكن يسمحُ لأحد بنقله في سيارته، وأما في طريق عودته من المسجد إلى البيت فلا تَسَل عن الاغتنام لهذه الدقائـــق، فهي إما في الفتيا، أو تصحيح بعض الكتب التي تُفرّغ من الأشرطة[2]، فإن لم يوجد مستفتٍ أو مصحّح لكتاب؛ فإنه يلبي رغبةَ بعضِ الطلاب الذين يريدون من الشـــيخ تعليقًا على بعض المتون المختـــصرة، وأعرف أكثرَ مـــن كتابٍ مطبوع في الســـاحة هو من شرحه في أثناء الطريق! كتعليقه على كتاب (كشـــف الشـــبهات)، وتعليقه على (منظومة القواعد الفقهية) لشيخه السعدي، وللحديث صلةٌ إن شاء الله.

❋

(١) مقال لفضيلة أ. د. عبدالله الطيار في جريدة (الجزيرة) ٢٠/ ١٠/ ١٤٢١هـ.

(٢) وقد رأيت هذا بنفسي مرارًا.

تعلمت من ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(٨)

٢٥/ ٧/ ١٤٣٦هـ

المعْلمُ التاسع[١]: الزهد في الدنيا:

ما أشرف هذا المسلك وأعظمَه! الذي حقيقته: «تركُ الرغبةِ فيما لا ينفع في الدار الآخرة؛ من فضول المباح التي لا يُستعان بها على طاعة الله»[٢].

وإن من أعلى مراتب الزهد: أن يكون المرءُ قادرًا على حيازة حُطام الدنيا، بل وتأتيه الدنيا، وتُعْرَض عليه، ومع ذلك تراه زاهدًا فيها لا يريدها، يأخذ منها قدْر البُلغة، ويجعلها في يده لا في قلبه، ويستخدمها، ولا يَخدمها، وهذا ما أحسب أن شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان متّصفًا به، كما شهد بذلك القاصي والداني.

---

(١) أشرتُ فيما سبق إلى ثمانية معالم تميزت بها شخصية شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهي: (وضوح الهدف)، و(الثبات على المنهج والهدف الذي رسمه لنفسه)، و(العناية بالقرآن حفظًا وفهمًا وعملًا)، و(حبّه لنشر العلم واغتنام الفرص لتبليغ الشريعة)، و(التثبت في النقل والحكم)، و(عنايته بالتحصيل العلمي لطلابه)، و(حرصه على تطبيق السنة في أموره كلها)، و(حرصه على الوقت)، وأتابع في هذا المقال ذِكر بعض تلكم المعالم.

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢١).

لقد كان شيخُنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ قادرًا على العيش عيشة كبار الأغنياء والأثرياء، ولكنه رضي من ذلك بالقليل، ولله درّ الشـــاعر حينما وصف إتيانَ الدنيا للشيخ وإعراضَه عنها بقوله:[1]

لكـــأني أُبصِـرُ الدنيـــا الـتي
بَذلـتْ إغـــراءَهـا للنـــاظرين

أقبلـتْ تَعـــرِضُ مِـنْ فتنتِـــها
صورًا تَســـبي عقولَ الغـــافلين

رقصـتْ مِن حـولِـه لكـنَّـها
لم تجِـدْ إلا ســـــموَّ الزاهـــدين

أرســـــلَ الشـــيخُ إليها نظـرةً
مِن عزوفِ الراكعينَ الساجدين

فمضـتْ خـائبةً خـاســـــرةً
تتحـاشى نظراتِ الشـــامتين

أخـرجَ الدنيـــا من القـلبِ وفي
كفِّه منـها بـــلاغُ الـزاهـــديـن

لم يكـــنْ فـي عزلـةٍ عنْـها ولـم
يُغلقِ البابَ عنِ المســترشـدين

(١) مـن قصيـدة للدكتـور عبدالرحمـن العشـماوي، نُـشرت في (الجزيـرة) بتاريـخ ٢١/ ١٠/ ١٤٢١هـ.

إن هـذا الخُلق العظيم من أعظم مزايا الشـيخ، بـل ولعلّه من أكبر الأسـباب -مع وفور العلم والورع- التي جعلت للشـيخ هذا القبولَ العظيمَ.

ومما اشـتهر عند العامة والخاصّة أن الملـك خالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما زار عنيزة في أوائل عام ١٤٠١ هـ، عرَض على شـيخنا أن يَبنـي له بيتًا على الطراز الحديث بدلًا من بيته الطِّيني؛ فاعتذر شـيخُنا بلُطف، وقال: الأهم من ذلك بناء الجامع، ووُقِف لطلاب العلم الغرباء.

ومن جميل ما وقفتُ عليه مما كُتِب عن الشـيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما كتبه أحدُهم متحدثًا عن سر القبول العظيم الذي وضعه الله للشـيخين العالمين: ابن باز، وابن عثيمين رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ، أسـوق بعضَ كلامه، حيث يقول: «لماذا كل هذه العواطف الجيّاشة تجاه هذين الرجلين؟ وما هو سِر محبتهما في قلوب الجميع؟ هل هناك عوامل أو صفات مشتركة بينهما؟ هل المستوى العلمي وحده هو المحرّك لتلك العواطف؟ بمعنى هل هو التميز العلمي فقط؟ أم السلوك الشخصي؟ أم ماذا؟ في اعتقادي أن الوقفات الآتية تتضمن نقاطًا مهمة في قراءتنا للموضوع، وفي محاولتنا لتفسير أي غموض يكتنفه:

أولًا: أهمية العفّة والنزاهة بالنسبة للجميع وبخاصة العلماء، ودورها في إضفاء الهيبة والوقار عليهم، ومحبة الناس لهم، لقد كانت العفةُ والنزاهة التي تميّز بها كلٌّ منهما -وبحق- مصدر ثقة بهما، ومحبة لهما، وعزة وكرامة لهما في الدنيا، وأرجو أن تكون شافعة لهما يوم القيامة، وأحسب أن العفّة والنزاهـة رايةٌ بيضاءُ يجب أن تُميِّز طالـبَ العلم الشرعي، وثوبٌ ناصعُ البيـاض يرتديه، ويميّزه عن طلّاب الدنيا، وقـد أثبت التاريخُ أن العفّة

والنزاهـــة تُضفي على أصحابها من العلماء هيبـــةً ووقارًا في قلوب العامة والخاصة.

ثانيًا: الزهد في الدنيا الفانية، بما فيهـــا من وظائف وأموال، واحتقارُ المادّة وغيرها مهما بلغ حجمُها»[1].

جعلنـــا الله مـــن الزاهدين في الدنيا عـــلى الوجه الـــذي يرضيه عنا، وللحديث صلةٌ إن شاء الله.

❋

(١) كتبه د. فهد السلطان في جريدة (الجزيرة) ١٢/ ١٠/ ١٤٢١هـ (ص٢٩).

تعلمت من ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(٩)

١/ ٨/ ١٤٣٦هـ

المعْلمُ العاشر: الورع:

الورع هو «ترك مـا قد يَضر في الدار الآخرة، وهـو ترك المحرّمات والشـبهات التي لا يسـتلزم تركها ترك ما فِعْله أرجـح منها»[1]، ولهذا الخُلق العظيم تطبيقات عدّة في حياة الشيخ، ومنها:

١. **في الفتوى:** تورّعه في الجواب عن الحكم على بعض الأحاديث التي لا يَعرف صحّتَهـا، وهذا كثير جدًّا، وتورّعه عن القول بمسـائل لم يُسـبَق إليها، أما التوقّف عما لا يَعلم فهـذا ورعٌ واجبٌ لا يجوز انتهاكه.

٢. **في عمله في الجامعة:** وذلك أن شـيخنا يحصل أن يتغيب عن الجامعة لمصالح مهمّـة؛ كارتباطه باجتماعات هيئة كبـار العلماء التي تُعقد أحيانًا في أيام الدراسـة، فعند ذلك يَخصِم مـا يُعْطَى له مقابلَ تلك

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢١).

المحاضرات، ويدفعه للعميد، أو مدير الجامعة نفسه، كما ذكر ذلك أكثـــرُ من واحد، ومنهم معالي أ. د. عبد الله التركي، المدير الســـابق لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية[1].

٣. ومن هذه المواقف أن شـــيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عام ١٤١٧هـ اســـتضافته جامعةُ الإمام ليُلقي محاضرةً على المبتَعثين، وليجيب عن أســـئلتهم، وكان ترتيبُ تلـــك المحاضرة يتزامن مع اجتـــماع هيئة كبار العلماء في مدينة الرياض؛ فاعتذر الشـــيخ عن عـــدم إلقاء المحاضرة إلا أن يأذن له ســـماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز، فأذن له فحَضَر، وفي نهاية المحاضرة طلب منه ملقي الأســـئلة أن يوقّع عـــلى نموذج يُصرَف بموجبه للمحاضِر مكافأةً على المحاضرة، فلما صلى الشيخ، وجلس لاستكـــمال الأسئلة قال لملقي الأســـئلة: أين الورقة التي أعطيتني قبل قليل؟ فأعطاه إياها، فمزقها الشـــيخ، فقال له ملقي الأسئلة: لمَ فعلتَ ذلك أحســـن الله إليك؟ قال: نحن الآن محسوبون على هيئة كبار العلماء بالرياض[2].

٤. **ومن ذلك**: أن عميد كلية الشريعة السابق[3] حدّثني أن شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما عاد من رحلته العلاجية من أمريكا؛ زاره في مســـجده في عنيزة، وفي زحمة الناس، ومع إنهاك المرض؛ لم ينسَ الشيخُ أن يسأل العميد، فقال له: أنـــا تغيّبتُ عن العمل، والراتب مـــا زال يُصرَف! فأجابه العميدُ بـــأن الموظّف له حقٌّ في الإجازة المرَضيّة؛ فاطمأن الشـــيخ.

---

(١) مقال لمعالي الدكتور عبدالله التركي في مجلة الأربعاء (١٣)، بتاريخ ٢٩/ ١٠/ ١٤٢١هـ.

(٢) مجلة الدعوة، العدد الخاص عن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بتاريخ ٣/ ١٠/ ١٤٢١هـ (ص٤٦).

(٣) هو أ. د. عبدالله بن حمد اللحيدان، عميد الكلية سابقًا.

سـبحان الله! كم ذاب هـذا الخُلقُ العظيم في زحمـةِ المال، والركضِ خلف المناصب والكرسي، وحظـوظِ النفس العاجلة! وقد يقع هذا من أناسٍ محسـوبين على العلم بتأويلات باردة، وبعضها مسـتكرَهٌ، فعرف بعضُ العقلاءِ سرًّا من أسرار قلّة الانتفاع بعلمِهم وهم أحياء!

ولما كان للورع أثرُه في القلب والعلم والعمل؛ كان السلف يتواصون به، ويتعلّمونه، كما قال الضحّاك: «أدركتُ الناس وهم يتعلَّمون الورع، وهم اليوم يتعلَّمون الكلام!»[1]، فاللهم، انفعنا بما علمْتَنا، وارزقنا الورعَ عما يُفسِد قلوبَنا ودينَنا، وللحديث صلةٌ إن شاء الله.

❋

(١) الورع. ابن أبي الدنيا (ص٥٠).

تعلمت من ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(١٠)

٧/ ٨/ ١٤٣٦هـ

المعْلمُ الحادي عشر: التواضع:

وهذا -أيضًا- مما اشتهر عن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وله في ذلك مواقف عدة!

وقد يقول قائل: أوليس هذا أمرًا واجبًا؟ أوليس الكبرُ محرمًا؟ فالجواب: بلى، لكن مرادي هنا التنويه بمزيد من هذا الخلق عند شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولأن التواضع إذا صدر من الكبار له وقْعُه وأثرُه، ويُزْدرَى شرعًا وعقلًا إذا صدر الكبرُ من غير من يُتوقع منهم، فمن الثلاثة الذين لا يكلّمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة: «عائلٌ مستكبر»[1].

وأذكر هنا مواقف مختصرة جدًّا، تناسب طبيعة هذه المقالات:

١. ذات مرة كان الشيخُ يسير في الشارع، فدعاه أحدُ الشباب -وعمره أربعة عشر عامًا- لتناول القهوة في منزله، فدخل الشيخ معه، وسأله عن دراسته، ثم خرج.

---

(١) رواه مسلم (رقم١٠٧)، والعائل: الفقير.

٢. رأيتُ الشـيخَ مرارًا يركب سيارات بسـيطة جدًّا، لا يركبها بعضُ الناس الذين يشـعرون بشيء من الوجاهة أو المكانة، أما شـيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ فلم يكن ممن يبالي بهذه الأشياء.

٣. وأما تواضعه في معاملته للناس، فهذا له مواقف وصور كثيرة منها:

أ ـ مع الأطفال: وهذا أمر معروف عن شيخنا: فهو لا يملك مشاعره تجاههـم، حتى قال بعض الإخوة: إنني إذا كانت لديّ حاجة عند الشيخ، وظننتُ أن الشيخ سـيعتذر -لضيق وقته أو نحو ذلك- ذهبت بأولادي كالشُّفَعاء بين يَدي حاجتي[1].

- ذات مرّة ذهب أحدُ الإخوة ليُصلي مع الشـيخ؛ للسـلام عليه عقب وصوله من أحد الأسـفار، فاصطحب معه أحدَ أطفاله، فلما سـلّم الشـيخُ من فريضته قام هذا الأخ ليصـلي راتبةَ تلك الفريضة، وكان مِن عادة الشيخ أن يصلي الراتبة في البيت، فلما همّ الشيخ بالانصراف -في الوقت الذي كان فيه ذلك الأخ يصلي- ذهب الطفل إلى الشيخ، ودخل في غمرة النـاس، وقال له: والدي يريدك! وأمسـك بثوب الشـيخ حتى جاء به إلى مكان أبيه الذي يُصلي فيه الراتبة، فلم يُفاجَأ إلا والشـيخ قائمٌ على رأسه، والطفل ممسـك به! فقام، وقبّل رأسَ الشيخ، واعتذر منه، وبيّن له أن هذا مِن تصرّف الطفل.
- وكم رأيتُه مـرارًا يُعطي طفلة تقف عند باب الجامع بشـكل متكرر ريالًا، ولربما مازَحَها، وقال: «تريدَنْ ريالًا جديدًا أو قديمًا؟» ثم تقول له: أعطني لأخي، فيعطيها وهو مبتسمٌ منشرحَ الصدر!

(١) مقال للأستاذ سامي الغرير في جريدة (الجزيرة) بعنوان (الجوانب الإنسانية عند الشيخ) بتاريخ ٢٢/ ١٠/ ١٤٢١هـ.

ب ـ مع عامّة الناس: ومواقفه معهم كثيرةٌ، وفي بعضها طرافة، أذكر منها:

١. ما حدّثني به د. علي بن إبراهيم اليحيى[1]، أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حدّثه، فقال: كنتُ في مكة المكرمة في يوم من الأيام، فركبتُ مع سائق أجرة، وكان هذا السائقُ من الأعراب، فلما ركب الشيخ معهُ أخذ يُمازحه، ويسأله، فسأل السائقُ الشيخَ: مَن أنت؟ فقال الشيخ: أنا محمد بن عثيمين! فقال له الشيخ، ومن الأخ؟ فأجابه السائقُ جوابَ الذي يظن أن الشيخ يَسخر منه: معك عبدالعزيز بن باز! فقال الشيخ: أقول لك: أنا محمد بن عُثيمين، فأصرّ السائقُ على جوابه قائلًا: معك عبدالعزيز بن باز، فقال له الشيخ -لما رأى إصرارَه-: الشيخ ابن باز ما يشوف (لا يبصر) فكيف يسوق السيارة؟! فالسائق عرف من الشيخ أنه جادٌّ، فأُحْرِجَ هذا السائق من لطف الشيخ وتواضعه. شيخٌ يُباسِطه ويمازحه.

وتأمّل كم في هذا الموقف من دلالة على تواضع الشيخ! فقد تبسّط مع هذا السائق هذا التبسُّط، وكيف ركب هذه السيارة البسيطة، مع أنه كان بإمكانه أن يَطلب موكبًا رسميًّا ولكبار الضيوف، لكن الشيخ لم يكن يبالي بهذه الأشياء أصلًا، بل لم تكن تخطر له على بال.

٢. أما موقفه مع العامّة الذين قد يتصرف أحدُهم تصرفًا يظهر للشيخ منه حسنُ القصد؛ فإن الشيخ لا يعنّفه، ولا يوبّخه، بل يتعامل معه بكل رفق، وأذكر مرة ونحن في الدرس؛ فجاء رجلٌ عاميٌّ رثّ الهيئة، فتخطى الصفوف، حتى وصل إلى الشيخ في مجلس درسه،

(١) عضو هيئة التدريس -سابقًا- في قسم السنة وعلومها بكلية الشريعة.

وأعطاه حزمة من الســـواك، فشـــكره الشـــيخُ، ووزّع السواك على أقرب الطلاب، ولم يقل له شيئًا، على الرغم من أن هذا الرجل قطع الدرس، وهذا من أكثر ما يُغضب الشـــيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وللحديث صلةٌ إن شاء الله.

تعلمت من ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(١١)

١٣/ ٨/ ١٤٣٦هـ

المعْلمُ الثاني عشر: الاهتمام بشؤون المسلمين في الداخل والخارج:

وهذا من شـــأن العالم الإمام، الذي لا يَشغله شأنُ العلم عن الاهتمام بقضايا الأمة، ولقد كان لشيخنا نصيبٌ وافرٌ من ذلك.

وكانت قضيةُ وحدة الصف، ولمّ الشـــمل، وجمـــعِ الكلمة على الحق، والتحذيرِ من التفـــرقِ والاختلافِ المذمومِ، والتـــماس الأعذار متى ما وجد الإنســـانُ إلى ذلك ســـبيلًا؛ كانت تلك من أعظم القضايا التي كان يرُكّـــز عليها في أحاديثـــه ومحاضراته ولقاءاته بالمســـلمين في كل مكان، وكثيرًا ما كنتُ أســـمعه يُردّد قوله تعـــالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى:١٣].

أما عن اهتمامه بقضايا الناس في الداخل فهذا كثير جدًّا، ولعلّي أُشـــير إلى شيءٍ من ذلك على وجه الاختصار:

١. جلوسُـــه للناس بعد العصر: كلَّ يوم مدّة تقرب من الســـاعة، وقد تزيد، وقد تنقص بحســـب كثرة الناس وقلّتهم، وذلك للإجابة عن أســـئلتهم، وقضاء حوائجهم، وتحرير بعض الفتاوى، وقد لا يعود لبيته إلا قبيل المغرب، خاصةً أيام الشتاء.

٢. عنايته بعمارة المســـاجد: وهذا أمرٌ لمسته بنفسي في مشروعات كثيرة عرضتُها عليـــه رَحِمَهُ ٱللَّهُ فلم يرد لي أيَّ طلب منهـــا، وكان من وَرَعه أنه يَطلب منّي -قبل أن أعرض عليه التكلفة التقديرية- أن أســـأل مؤسســـةً موثوقةً، لها خبرة في مجال العـــمارة، حتى يَطمئن إلى المبلغ الذي يدفعه.

٣. اهتمامه الواضـــح بجمعيات تحفيظ القرآن الكريم: من حيث الحث على دعمهـــا ماديًّا ومعنويًّا، وقد ظهر هذا الدعم المعنوي في حرصه رَحِمَهُ ٱللَّهُ على حضور حفلات هذه الجمعيات إذا كانت داخل القصيم، أو إرسال وفد لحضورها إذا كان الاحتفال خارج المنطقة.

٤. وكذلك الحال مـــع هيئات الأمـــر بالمعروف والنهي عـــن المنكر، والإخوة العاملون في هـــذا القطاع المبارك يُدركون ذلك أكثر مني.

٥. وما قيل عن هذه المؤسسات الخيرية التي يدعمها الشيخ؛ يقال عن دعمه لمكاتب الدعوة والإرشـــاد، والمؤسســـات الخيرية التعليمية والإغاثية، وغيرها من الجهات الخيرية.

٦. وكان من آخر ما قام به الشـــيخ في حياته رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن الناس في عنيزة لما حصل عندهم شُحٌّ في الماء؛ تطلّب ذلك حفرَ مجموعة من الآبار، وكانت تكلفتها باهظة، فتكفّل الشـــيخُ بدفـــع قيمتها -من أموال المحسنين- وكانت أكثر من مليوني ريال!

وأمـــا في الخـــارج: فمع المراكز الإســـلامية، ومتابعة أحـــوال البلاد الإسلامية المنكوبة، أو التي قام فيها علمُ الجهاد في سبيل الله تعالى، فكان الشـــيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على اتصالٍ دائم بإخوانه في البوسنة إبّان الحرب، وكذلك في الشيشـــان التي يوجد بها بعضُ طلابه. وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يحث بعض طلابه على السفر إلى الخارج للدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

أما المراكز الإسلامية: فقد كانت على اتصال بشيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ وكان يهتم بما يعرضونه من مشكلات، ويحاول تذليل الصِّعاب لهم، وفي آخر حياته كان يُلقي المحاضرات إلى المراكز الإســـلامية في أمريكا وأوروبا وهو في بيته، وبعضها كان بشكل دوري.

وقد ذكر أحدُ الإخوة موقفًا حصل له مع الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما استمع منه إلى حديثٍ عن بعض مشـــكلات المسلمين في الخارج، وبعض أخبارهم، فأخذه الشيخُ على انفراد، وقال: أنا وأنت هنا، ولا يرانا إلا الله، خذ هذا المال -وكان كبيرًا- وهو من مالي الخاص، واشترِ به مصاحف، ووزّعها على المحتاجين في الســـجون الأمريكية، وأنت مسؤول عن الشراء وعن التوزيع، وأسألك بالله ألا تبلّغ أحدًا بهذا[1].

(١) مقال للدكتور عبدالله الموســـى في جريدة (الجزيـــرة) في ٢١/ ١٠/ ١٤٢١هـ عدد رقم (١٠٣٣٧).

وبعد: فمهما تحدثتُ عن شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ فهو قليلٌ بحقّه، وإنما المقصود التنبيه إلى شيء من ســـيرته ومعالم من حياته عـــلى وجه الإيجاز؛ لعل الله أن ينفع بها، فاللهم، اغفر لشـــيخنا، وارفع درجتـــه في المهديين، وارحمه برحمتك الواســـعة، واجعلنا وإياه في الفردوس الأعـــلى مع من أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشـــهداء والصالحين، وحســـن أولئك رفيقًا، والحمد لله رب العالمين، وصلَّى الله وســـلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمثال مُحبِطة

٢٥/٨/١٤٣٦هـ

تحتل الأمثالُ -العربي منها والشعبي- مكانةً عاليةً في الموروث الثقافي لكل أمةٍ وبلدٍ، ولا شـك أن كثيرًا منها يحمـلُ في طياته خلاصةَ تجاربِ قائليها، وعصـارةَ فكرهم، وفي كثير منها وجهٌ مـن وجوه الحكمة، بل بعضُها يحمل تاريخًا لقصة سارَ بسببها ذلك المثل.

ولشدة تأثير هذه الأمثال في ثقافة كثير من الناس؛ صار بعضُهم يردّدها وكأنهـا نصوصٌ محكمة، لا يأتيها الباطل مِـن بين يديها ولا من خلفها! وأصبح الوالدُ والمعلمُ والشـاعرُ والمتحدّثُ في المجالس يستخدمها -في بعض الأحيان- بوصفها دليلًا قاطعًا لحسم الخلاف حول قضيةٍ معيّنةٍ!

والأمرُ المؤلم في هذا الموضوع: هو ما يقع من التسـليم بمعاني بعضِ تلك الأمثال، والاستسلام لمضامينها السلبية، وانتقال هذا التأثر بفهمها إلى الواقع؛ فتقعـدُ بصاحبها عن معالي الأمور، وتَجاوزِ العقباتِ التي تمرّ به، وسأذكر نماذج لبعضها ليقاس عليها؛ حتى يُعلَمَ أن بعض هذه الأمثال قد يكون جاء في سياقٍ معيّن، أو ظَرف خاص، ولا يَصح استعماله في كل مناسبة، ولِيُعْلَمَ أيضًا أن بعض هذه الأمثال ينبغي الإعراض عنه.

فمن الأمثال الدارجة -وخصوصًا في الأوســـاط العلمية-: «ما تَرك الأوَّلُ للآخِر»!

وأكتفـــي في نقد هذا المثل بقـــول ابن عبدالبَر عن هـــذه الكلمة: إنها مِن أضر الكلمات بالعلم وبالعلـــماء والمتعلِّمين[1]، وصواب العبارة عند أرباب الهِمم: «كم تَرك الأوّلُ للآخِر»!

فالجملة الأولى تحمل رســـالةً سلبية بقتل الإبداع، وأن مَن سبَقَنا لم يَترك لنا مجالًا لأنْ نُبدِع، أو نجدِّد، أو نُضيف شـــيئًا، بخلاف الجملة الثانية؛ فهي تَفتح البابَ على مصراعيه لمن يريد الإضافةَ والتجديد، وتَقديمَ النافعِ المفيد.

ولك أن تتصور لو ركَن العلماءُ الذين جاؤوا بعد القرون المفضّلة لهذه الجملة المحبِطة، فهل كنّا سنرى شروحات ابنِ عبدالبَر؟ أم تَفنُّن الخطيب البغدادي في التصنيف في علوم الحديث؟ أم هل كانت ســـتنتفع المدرسةُ الفقهيةُ بمدونات النووي أو ابن قُدامة، وغيرهما من محقّقي الفقهاء؟ أم تُرانا كنّا نستفيد مِن تحريرات وتحقيقات شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه، وأخص منهم ابن القيم، وابن كثير، وابن عبدالهادي- في شـــتى الفنون؟ أم هل كانت ستنعم المكتبةُ الإســـلاميةُ -والحديثية خاصة- بتحريراتِ المزيّ وتلاميذه -كالذهبي وابن كثير-؟ أم هل كنّا سنرى تلك الإضافةَ العلميةَ العظيمةَ في مصنفات ابن حجـــر وخاصة فتح الباري؟ أم تجدنا مســـتفيدين من تجديد الإمام محمد بن عبدالوهـــاب في أبواب التوحيد -وخاصـــة توحيد العبـــادة-؟ أم هل كنّا ســـنَطْرَب لتحقيقات العلامة المعلّمي اليماني؟ وغير هؤلاء كثير جدًّا.

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٤١٦).

وما أجمل قولَ ابن القيم -وأصل الكلمة لشيخه ابن تيمية-: «العامّة تقول: قيمـــة كلّ امرئٍ ما يُحســـن، والخاصة تقول: قيمـــة كلّ امرئٍ ما يَطلب، يريد: أن قيمة المرء همّته ومطلبه»[1]؛ فدع عنك هذا المثل المحبِط، وانظر فيما تتطلع له همّتك، وتأمل ما الطرق التي يمكن ســـلوكُها لتقديم الجديد والمفيد؛ فاسلكه مستعينًا بالله.

وهذا الكلام ليس خاصًّا بعلوم الشريعة فحسب؛ وإنما في جميع الفنون والمجـــالات -الدعويـــة، والإغاثية، وغيرها- بـــل وفي العلوم الدنيوية المحضة؛ إذْ لو استســـلم المخترعـــون لواقعهم، لم ننعم بهـــذه التقنيات الحديثة، التي لم يكن أكثرها موجودًا قبل مئةِ سنة من الآن.

ومن تلك الأمثال الســـائرة -وهو مثلٌ شـــعْبي-: «يوم شاب دخلَ الكُتّاب»؛ أي: يوم تقدّم به السنّ بدأ يتعلّم!

وهذا المثل يحمِل رسالةً ســـلبيةً لهذا المتعلّم الذي تعلّم على كبَرِ سِنّه، وكأنه يُقال له: ما فائدةُ تعلّمِك في هذه السن؟ ومِن أقرب ما يفنّد مدلول هذا المثل: عموم الأدلة الدالة على طلب العلم وتحصيله؛ ولهذا لما ســـاق البخاريُّ قولَ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تفقّهوا قبل أن تُسَودوا» علّق عليه البخاري قائلًا: «وبعد أن تُسَـــودوا، وقد تعلّم أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كبر ســـنهم»[2]، ولأنْ يموت الإنســـانُ متعلماً خيرٌ له مـــن أن يموت راضيًا بجهله.

وبكل حالٍ، فليس المقصودُ من هذه المقالة حصرَ الأمثلة التي من هذا

(١) مدارج السالكين (٣/ ٥).

(٢) صحيح البخاري (١/ ٢٥).

النـــوع، بل التنبيه على ما أشرتُ إليـــه في المقدمة؛ مِن ضرورة التنبّه للأثر الســـلبي لهذه الأمثال التي تُردَّد دون وعي في بعـــض الأحيان، وينقلها اللاحقُ عن الســـابق، وأن يُدقِّق الإنســـانُ في هذه الجُمَـــل، ولا يلتفت للمثبّط منها والمحبِط، وليكن لسان حاله: «استعن بالله، ولا تعجز».

لا تُنَفروا إخوانَكم من رمضان

١/ ٩/ ١٤٣٦هـ

لما دخل أولُ يومٍ من رمضان التفتَ إمامُ المسجد، فوجد أعدادًا كبيرة قد صلّت معه، فانتهز هذه الفرصة ليكرّر موعظتَه السنوية المعروفة، التي لا تخلو من جملة: «بئس القومُ الذين لا يعرفون اللهَ إلا في رمضان!».

هذا المشـــهد قد لا يتكرر كثيرًا بالتفاصيل نفســـها، لكنه قد يتكرر في المضمون نفســـه، حين يمارس بعضُ الإخوة الغيورين أســـلوبَ التقريع والتوبيـــخ المباشر وغير المباشر للذين وجـــدوا في رمضان فرصةً للقرب من الله، والتخفّفِ من بعض الذنوب، والرغبة في تغيير الحال، خصوصًا ورمضان شـــهرٌ تُفتّح فيه أبوابُ الجنّة، وتغلّـــق فيه أبواب النار، وتصفّد الشياطين، ويجدُ المسلمُ مع الصوم من الصفاء والقرب ما لا يجده في غيره من الأحوال، خاصةً وهو يعيش هذه العبادة مع أكثر من مليار مسلم.

كم تعجبني تلك الكلمة العميقة مـــن الإمام الرباني أبي العباس ابن تيميـــة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، التي يقول فيها: «ليس كل الخلـــق مأمورين بالكمال، ولا يمكـــن ذلك فيهم»[1]، وهذا معنى يجب أن نســـتحضره عنـــد تأمُّلنا في

(١) الاستقامة (٢/ ١٥٦).

أحوال الناس، ووعظهم وتذكيرهم، فالكمال مرتبة فاضلة، ينبغي السعي إليها، والتشجيع عليها، لكن ليس من السائغ شرعًا ولا عقلًا حَمْلُ الناس عليها، ويوضّح ذلك أن الله تعالى قال: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ۖ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۖ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾[فاطر:٣٢]، فكل هؤلاء الأصناف الثلاثة: الظالم -وهو المفرّط ببعض الواجبات، الفاعل لبعض المحرمات- والمقتصد -وهو الفاعل للواجبات، التارك للمحرمات- والسابق بالخيرات؛ كل هؤلاء ممن أورثهم الكتابَ بل واصطفاهم، وتأمّل كيف بدأ بذكر الظالم؛ حتى لا يغتر السابقُ، ولا يقنط عاصٍ!

إن الحديث عن المقامات العالية والأحوال الفاضلة يصلحُ أن يركّز على طلاب علم؛ فلا ينبغي من مثلهم التقصير، أما عموم المسلمين فينبغي الرفق بالحديث معهم وإليهم -خاصةً في أزماننا هذه التي كثرت فيها سبل الصدّ عن الخير وأهله- وأن يُشْكَروا على كل خطوة يتقدمونها في الخير، ويُحْمدوا على كل خصلة رديئة يتركونها، وأن يُفْرَحَ بكل والجٍ للمسجد، وأن نستشعر أن مجرد وصولهم إلى المسجد هو خير عظيم يجب استثماره، والترحيب به، وأن نبتعد عن أي أسلوب ينفّر الناس من هذا الدين، وإن غُلِّف بغلاف الغيرة، أو النصح.

وتأمل معي هذا الموقف الذي حدّث به أبو مسعود البدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: فقد جاء رجل إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان، مما يطيل بنا! فما رأيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غضِب في موعظة قط أشدَّ مما غضب يومئذ، فقال: «**يا أيها الناس، إن منكم منفّرين،**

فأيكم أمَّ الناس فليوجز؛ فإن من ورائه الكبير، والضعيف، وذا الحاجة»[1]، فانظر كيف غضـــب النبي ﷺ من هذا الفعـــل الذي أصله حقّ -وهـــو الصلاة- لكن طرأ عليها ما نقلها عن كونها وســـيلة للتقرب إلى كونها وسيلة للتفرّق! وهكذا يقيس العاقلُ الفقيهُ في وعظه على هذا المثال.

إن مما ينبغي ألا يَغيب عن بال الواعظ هو: النظر إلى الموعوظين بعينِ الرحمة، وإلى نفسه بعين الإزراء والمقت، فلربما كان فيمن يستمع له -ممن قـــد لا يبدو هذا على مظهره- من هو أكثـــر صلاحًا وتقًى، وقد تكون له أعمالٌ صالحةٌ، وخبايا من الحسنات بينه وبين الله.

ومَنْ عرف نفســـه حقًّا، وحاسبها، وعرف مقدار تقصيرها؛ مَقَتَها في ذات الله، وأنه لولا ســـترُ الله الجميل لما وقف واعظًا لعباد الله، فليحرص على الرفق، وليجتهد في النصح المقرون بالرحمة والشفقة.

وكل ما ســـبق لا يعني -بلا ريب- السكوتَ عن النصح، ولا غضَّ الطرف عن تصحيـــح الأخطاء، لكـــنّ الموفّق يلتمس الوقـــتَ والحالَ الأنسبَ، بعد التأكد من كون الأمر الذي ينبّه عليه من المنهي عنه بالدليل الشرعي، وأنه ليس للشخص المنصوح عذرٌ ومأخذٌ معتبر فيما فعل، والله الموفق.

(١) رواه البخاري (رقم٧٠٢)، ومسلم (رقم٤٦٦).

حتى ننتفع بالتراويح

٧/ ٩/ ١٤٣٦هـ

إذا ذُكِرَ رمضان ذُكرتْ التراويح، تلك السُّنَّة التي توارثتها الأمةُ عن نبيهـا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والتي حصل بسـببها خيرٌ عظيمٌ.

إنها لمشـاهد تبعث على البهجة، حين ترى تلك الجموع تنقاد طواعيةً إلى بيوت الله، من مختلف فئات المجتمع، ومنهم أولئك الشبابُ الذين قد لا تبدو عليهم مظاهرُ الاستقامة الظاهرة.

إن التراويح ليسـت مجرد تظاهرة دينية رمضانيـة، بل هي انتصابٌ للأقدام بين يدي ملك الملوك قُرابة السـاعة، والمصلي فيها يسـتمعُ لخير ما نزل من السـماء، كلامِ الملك العظيم، الذي ما صلحت القلوبُ بمثل ما صلحت به.

إن أحدنا لو كثرت مجالسـته للملوك، أو أهـل الثراء لظهر أثرُ ذلك عليه وعلى كلامه ولباسـه، فكيف بمن يجلس على هـذه المائدة الربانية ثلاثين ليلة! وتزداد كثافةً في عشرها الأخيرة، هذه المائدة التي تتنوع فيها

المواعظُ والأحـــكامُ، وآيات تتحدث عن أشرف علومِ هذا القرآن، وهو الكلام عن الله تعالى وعن صفاته جَلَّجَلَالُهُ!

وإن مـــن النُّصح أن نتواصى فيـــما بيننا، للبحث عن أفضل السُّـــبُل للانتفاع بهذه المائـــدة الربانية (التراويح)، ولعلي أشـــير إلى أهمها، ومن ذلك:

أولها: ينبغي ألا يغيـــب عنا -ونحن نمشي إلى التراويح- أن المقصودَ الأعظمَ من العبادات كلِّها هو تعبيدُ هذا القلب لله جَلَّوَعَلَا، وتذليله ليصل إلى الغاية الكبرى التي خُلق من أجلها الخلق: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريـات:٥٦]، ومن هذه العبـــادات: صلاة التراويح، فمتى استحضر المصلي هذه الغاية -وهو ذاهب للصلاة- فسيكون لها أثرٌ بالغ في صلاته، والتلذذ بسماع كلام الملك الرحمن.

ثانيها: حينما تُيمم وجهَك شـــطر بيتٍ من بيوت الله؛ فســـل ربك أن يجعل هذه الصلاة ســـببًا في صلاح قلبك، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وعلى العبد أن يسأل ربَّه بإلحاح أن يصلح هذا القلب، فإن صلاحه ليس بمجرد حسن صوت القارئ، ولا بجودة المكان، ولكنه توفيقٌ من الله لمن صدَقَ معه، وانطرح بين يديه.

تأمل هذه الآية التي خوطب بها الأسرى: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأنفال:٧٠]، وتدبر هذه الشـــهادة من العليم الخبير، التي تدل على أثَرِ صدق القلب فيما ينزله الرب تعالى عليه من بركات: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[الفتح:١٨].

ثالثًا: أن يستشعر عظمةَ شعيرة الصلاة، فهي خيرُ أعمالنا كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة**»[1]، وصلاة التراويح من جملة هذه الصلوات، والله تعالى يبين لنا أن تعظيم شعائره برهانٌ على تقوى القلب: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[الحج:٣٢].

رابعًا: أن يعيش هيبةَ الموقف بين يدي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وأنه واقف بين يدي مَنْ سعادتُه وصلاحُ حاله في الدنيا والآخرة بيده.

إن استشعارَ هذا الموقف وحده كافٍ في أن يخفّف عليه ما قد يجده من طولٍ في صلاته، بل ستتحول هذه المشقة إلى لذة.

خامسًا: تفقَّدْ قلبَك بعد الصلاة، وانظر: ما الذي أحدَثَه فيه هذا القرآن؟ فإن لم تجد الأثر فعُدْ على نفسك بالمحاسبة؛ إذ الرب شكور، لا يمكن أن يعمل العبدُ عملًا إلا ويثيبه عليه، هنا سيكون للتراويح أثرُها الواضح في حياة مصليها، ليس في رمضان فحسب، بل في العمر كلّه.

فإن قَصُرت النفسُ عن تحقيق ما سبق كله، فإن شعورها بالتقصير في حق الله، وضعفِ الأثرِ من ممارسة تلك العبادات، هو بداية الطريق نحو التصحيح، واستثمارِ مواسم الطاعة، في تحقيق أجلِّ مقاصد نزول الكتب، وإرسال الرسل، وهو: إصلاح القلوب، وتعبيدها لرب العالمين.

❋

(١) سنن ابن ماجه (رقم٢٧٧)، ومسند أحمد (رقم٢٢٣٧٨) وسنده صحيح.

التوسع في التدبر... وقفة مراجعة

١٤٣٦/٩/١٣هـ

العودةُ المشـــاهدةُ لكتاب الله تعالى -تلاوةً وحفظًا ومدارسةً وتدبرًا وتصنيفًـــا في علومه- شيءٌ يبعث على البهجة والفرح؛ إذْ لا عزّ للأمة إلا بالعودة إلى هذا الكتاب العظيم، وسنةِ نبيّه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وفيـــما يخصّ موضـــوع (التدبر) فإن هـــذه الفرحة بدا مـــا ينغّصها، ويكدّرهـــا؛ مِن جرأة بعضِ الناس على خوض غِـــماره دون اكتمال الآلة التـــي تخوّله للحديـــث فيه[1]، لذا تنـــادى جمعٌ من أهـــل العلم وطلبته؛ وصرّحـــوا بضرورة التوعية بخطورة هذا التوســـع الذي يزداد يومًا بعد يوم، وخطـــورة فتح الباب على مصراعيه، دون ضوابط وأصول تعصِمه من الزلل، وتنفي الدخيل عنه.

ويؤكـــد أهميةَ هذه الدعوة: أنه -عبر حِقَب التاريخ- ما من مبتدعٍ أو صاحبِ مذهب منحرف إلا وقد يســـتدل لباطله من القرآن! على طريقة

(١) ســـبق أن كتبتُ مقالةً في العام الماضي عنوانها: (التدبر بين تباشير العودة، وخطر الجرأة) وهو منشور على الموقع الشخصي:

http://almuqbil.com/web/?action=articles_inner&show_id=.1320

(اتباع المتشابِه)، أو النظر الأعور للأدلة، والانتقائية الجزئية، وسرى هذا الداءُ إلى مقالات بعض الصحفيين، وأطروحات بعض الإعلاميين في عصرنا الحاضر.

إن المتابع لهذا الموضوع -وخصوصًا في السنوات الأخيرة- ومع انتشار مواقع التواصل، وبعض المقاطع المرئية التي بدأت تنتشر؛ يشهدُ أمورًا تبعث على الخوف والقلق من جرأة بعض الناس على اقتحام هذا الميدان! والكلامِ في معاني كلام الله جَلَّوَعَلَا دون ضوابط أو أصولٍ علميةٍ؛ ما يستوجب من الجميع بذلَ النصح، قبل استفحال الأمرِ وتفاقمه.

إننا وكما نتواصى بتدبر القرآن -كما أمر الله- فيجب أن نتواصى بأن يكون ذلك وفق الطرق العلمية الصحيحة، ونحن كما نجزم بأن من أراد أن يمتثل الأوامر المجملة في القرآن كقول الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[البقرة:٤٣] لا يمكنه تحقيقُ ذلك إلا وفق الصلاة الشرعية التي بيّنتها السنة، فكذلك لا يمكن امتثال أمر الله بالتدبر إلا وفق هدي النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وصحابته، ومن سار على نهجهم في فهم القرآن.

وإذا كنا نفرحُ بهيبةِ عموم المسلمين من تفسيرِ كلمةٍ غريبةٍ دون الرجوع لكلام العلماء؛ فكذلك ينبغي أن يستقر في أذهانهم عدمُ التجرؤ على نشر التدبر إلا بعد التثبت والتبين من المعنى، فكِلا الأمرين -التفسير والتدبر- بابهما واحد؛ إذْ المراد منهما الفهم، ثم ما يتبعه مِن عملٍ قلبي أو بدني.

لقد مرّ بي ألوانٌ من تدبرات بعض الإخوة المنشورة على مواقع التواصل، أو وصلتني عبر رسائل نصية، وبعضُها عبر مكالماتٍ هاتفيةٍ،

تؤكّد وجوب المسارعة لضبط الأمر، والدعوة إلى التريث وعدمِ العجلة في النشر، ومن ذلك:

- تعليقُ بعضِهـــم على قوله تعـــالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾[محمد:٢٢-٢٣]، حيث قرر أن مِن الناس مَن يصوم، ويصلي، ويقرأ القرآن وهو ملعون! وأن القاطع لا يستفيد مِن القرآن، ولا مِن المواعـــظ، ولا من أيّ عبـــادة، وإن ختم القرآن أكثـــر من مرة، وقام الليـــل! لماذا؟ لأنه قاطعٌ لرَحِمه!! وأضـــاف أن عمَله لا يرتفع إلى الله ما دام قاطعًا! بل يَبقى معلّقًا، مع أن الآية لا تدل على ذلك، ولا يدل عليه الحديثُ الذي استشهد به، وهو قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تفتح أبواب الجنة يوم الإثنين ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شـــيئًا، إلا رجلًا كانت بينه وبين أخيه شـــحناء، فيقـــال: أنظروا هذين حتى يصطلحـــا**»[1]، فالحديث يدل عدم نيل فضيلة المغفرة التي تتكرر كلَّ أســـبوع مرتين، ولم يتحدث عن مسألة القبول! فانظر كيف تنقّل هذا الأخ من خطأ إلى خطأ!

- علّق أحد الإخوة على قوله تعالى: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾[طه:١٢] فقال: «خلَعَ النعلينِ فأوتي العصا، اخلع الدنيا من رجلك تمسك الهبات بيدك!»، فأين هذا من الآية؟ والآية إنما فيها الأمرُ بخلع النعلين لسبب -ذَكَره بعضُ المفسرين- وهو أن موسى كان يلبس نعلين مِن جلد حمار، فلا ينبغي أن يدخل بهما في الواد المقدس الذي سيكلم ربَّه فيه.

---

(١) رواه مسلم (رقم٢٥٦٥).

- ومـرّ بي كلامٌ لأحدهم يعلّل فيه سـبب حذف حرف (مِـن) من قوله تعـالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة:١٠٠]، وأخذ يفصّـل تفصيلًا يكفي في نقضه أن تعلمَ أن هذا الحرف (من) ثابت في قراءة ابن كثير المكي، وهي قراءة سبعية متواترة.

- ومِن أعجب ما سـمعت، ما قاله لي أحدُهم في مكالمة هاتفية: معللًا تسمية موسى بهذا الاسـم، أخذًا من الموس؛ لأجل أن يزيل فرعون من جـذوره!! وادّعى هذا الشـخصُ أن التدبر يمكـن لكل أحد، ولا يوجد حاجة للرجوع إلى كلام العلماء؛ لأن كلامهم غير معصوم، وأن تدبر القـرآن مفتوحٌ للجميع؛ لأن الله أمرنـا به جميعًا! ولك أن تتصور ما الذي سيصدر عن مثل هذا من تعليقات بل طوام!

ومن صور هـذه التدبرات الجائرة عن القصد: مـا يكون بعيدًا عن السـياق -وهو من أقوى المرجّحات في التفسير وفهم المعنى- أو يتكلم بما يخالف تفسـير النبي ﷺ أو الصحابة والتابعين، أو يكون هذا المتدبر لا يعرف مبادئ علم أصول الفقه، الذي يعنى بالناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيّد، والعام والخاص، فضلًا على القصور في علم القراءات، وعلوم اللغة العربية التي قد تكون هي المرجّح الأقوى في بعض المواضع.

إنّ الدعـوة إلى تدبـر القرآن حسـنةٌ، لكن لا يصـح أن تكون بهذا الإطلاق الذي يُشـيعه بعضُ الفضلاء؛ لما سبقت الإشـارةُ إليه، فبابُ التفسـير والتدبر واحدٌ من حيث الأصل، وإن كان في باب التدبر سـعةٌ من جهة أن اسـتنباط المعاني والإشارات يقع وإن كان معنى اللفظة ليس

غريبًـــا، إلا أن ذلك -أيضًا- لا يعني أن يكون التدبر غير منوط بضوابط -كما ســـبق- خصوصًا مع فشـــوّ هذه التعليقات على الآيات في مواقع التواصل، التي صار غالبُ الناس يتلقى منها دون تمحيص.

إنه ليحقُّ لكل غيورٍ على كتاب الله أن يتســـاءل: إذا كنّا نســـتنكر على الصحفي الـــذي ليس مؤهلًّا للـــكلام في معاني الله، فلـــماذا يخفت هذا الصوت حينما يكون المتكلّم من المنتسبين للمحاضن القرآنية، وهو ليس مؤهلًا؟ مع أن الصورة واحدة!

لقد بـــذل العلماء جهـــودًا في صيانة القرآن، ونفـــيِ الدخيلِ عنه من التفاســـير البدعية والشـــاذة؛ فعلينا كذلك أن نتعاون عـــلى صيانته من التدبرات الشاذة والخاطئة؛ فهذا من جملة النصيحة لكتاب الله التي نص عليهـــا النبي ﷺ في حديث تميم الداري المشـــهور، ولا يصح أن يفسَّر هـــذا بأنه تضييقٌ على الناس، بل هو صيانـــةٌ لكلام رب العباد من العبَث بمعانيه، وتصديرِها للناس عبر هذه الوســـائل التي تنقل المعلومةَ لملايين خلال دقائق معدودة، وإذا كنا نستعظم أن يتصدر لتفسير القرآن من لم تكتمل له أداتُه؛ فلماذا صار التدبر منبرًا سهلًا يصعده كلُّ أحد؟!

هذه أسطرٌ حملَ عليها النصحُ والمحبةُ لإخواني المسلمين، مِن أن يتكلم أحدُنا في كتاب الله دون علمٍ، أو بيّنة، وهي في الوقت نفسه دعوةٌ للتدبر بضوابطـــه العلمية، وأصولِه المرعيّة، وأن نحذَر مِـــن فتنةِ النشر وتدوير التغريدات والمقاطع المصورة -التي أغرت بها وســـائلُ التواصل- قبل التثبت والتبين، وأن يكون همُّ أحدنا نجاته يوم يسأله اللهُ يوم القيامة عما قال في كلامه، لا أن يكون المسيطر هو ذاتُ النشر، والله المستعان.

يا زوّار الحرمين

١٤٣٦/٩/١٩هـ

يَحُثُّ كثيرٌ من المسلمين الخطى -وفي شهر رمضان خاصةً- نحو الحرمين الشريفين؛ ابتغاء الأجر والمثوبة، لما استقر مِن أن ثواب العمل في رمضان أكثر من غيره، فيجتمع لقاصدهما شرفُ الزمان والمكان.

والمسافرُ لهذه البقاع المقدّسة، لا تُخطئ عينُه الكثيرَ من المشاهد التي ينشرح لها الصدر، وهي الأصل والأكثر بحمد الله، ولكن يعكِّر على ذلك بعضُ الأمور التي يَحسن التنبيه عليها؛ لتكون الزيارة محقِّقة لمرادها، وحائزةً أكبر مغانمها، ومن ذلك:

- إحسانُ القصد والنية عند العزم على السفر لهذه البقاع، وألا يكون الغرضُ المباهاة، أو التقليد، أو مجرد تزجية الأوقات مع الأصحاب، أو لغيرها من المقاصد الدنيوية المحضة؛ فإن العمرة وزيارة المسجد النبوي الشريف عبادة، ولا بد فيها من النية لتُقبل: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوى**»[1].

(١) رواه البخاري (رقم١)، ومسلم (رقم١٩٠٧).

- يلاحَظ أن بعضَ الناسِ قد يسافر، ويترك أولادَه المراهقين أو الصغار في بلده، ليعتكف أو يصلي في الحرمين أيامًا عدة، دون أن يكون عليهم رقيبٌ أو متابع من أهل البيت! ما يترتب عليه ضياعُهم أو فسادُهم، وهذا تصرفٌ بعيدٌ من الفقه؛ فالعمرةُ والصلاةُ هناك مستحبة، ورعايةُ الأهل والأولاد واجبة: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته»[1].

- ومـــن الناس من يذهب بعائلته هناك، لكنه ينشـــغل بخاصة نفســـه وتعبُّده، ويترك أهلَـــه، ويُهمل متابعتَهم -خاصـــةً المراهقين منهم- ومثل هؤلاء قد يتسبّبون في أَذيّة غيرهم في أسواقهم وغيرها؛ فيكون الوالدُ شريكًا في الإثم بسبب تقصيره في المتابعة.

- بعض النســـاء -هداهن الله- يتهاونَّ باللباس الشرعي عند سفرهن لهذه البقـــاع؛ فمنهن من تلبسُ الضيقَ الذي يَصِف حدودَ الجســـم، ومنهن مَن تخرج متزيِّنة متعطِّرة، ومنهن من تلبس عباءةً مليئة بالزينة، حتى إنها لتحتاج إلى عباءة أخرى تَستُرها، ومنهن إذا دخلت متجرًا أو محلًّا لشراء سلعة تتحدث مع الرجل الأجنبي عنها بلغة جريئةٍ، وكأنه أحد محارمها! بل ربما وقع شيءٌ من الخضوع بالقول، أو الضحك!

وكل ما سبق لا يشـــك عاقلٌ أنه من دواعي الفتنة، وموجبات الشر والفســـاد، وهو محرّم في كل زمان ومـــكان، لكنه في هذه البقاع أشـــدّ، والله تعالى خاطبَ أطهر جيل من النســـاء والرجال عرفته الدنيا، فقال:

---

(١) رواه البخاري (رقم٨٩٣)، ومسلم (رقم١٨٢٩).

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾[الأحزاب:٣٢-٣٣]، فكيـــف بعصرنا هذا الذي كثُرت فيه دواعي الشر، وأســـبابُ الفتنة؟! فلتتقِ اللهَ تعالى المرأةُ المسلمةُ، ولا تكن سببًا في فتنة الرجال والشباب خصوصًا؛ فترجع بالوزر قبل الأجر، ولهذا كان من المسائل المحكَمَة: أن صلاة المرأة في بيتها الذي تسكنه -ولو كان مستأجرًا في الحرمين- أفضلُ من صلاتها في الحرم، ومع هذا فإذا أرادت أن تخرج فلتخرج بحجابها الشرعي الكامـــل، غير متعطرة، ولا متزينة، ولا فاتنة أو مفتونة.

- ومما يلاحَظ على بعض زوار الحرمين- وفقهم الله- التقصير في التفقه في أحكام العمرة، مع كثرة الوسائل المعينة على ذلك في عصر الأجهزة الكفيّة، فترى المفتين تتكرّر عليهم بضعةُ أســـئلة من مئات المستفتين تدور على أحكام واضحة، وسهلة الفهم، ويمكن تناولها من المصادر المكتوبة أو المســـموعة أو المشـــاهدة، فعلى مَن قصـــد مكةَ -للعمرة خاصـــة- أن يجتهد في قـــراءةِ صفة العمرة، والإحـــرام من الميقات، وكيف يطوف، ويسعى، وكيف يقص شعره، ومتى يحرم من الطائرة، ونحوها من الأحكام التي تناولها المؤلِّفون في مناسك الحج والعمرة.
- عـــلى من وفّقه اللهُ للعمل في رحلته إلى الحرمـــين أن يكتم ما وُفّقَ له، ولا يتحدّث بذلك؛ فإن هذا عملٌ صالـــحٌ، والحديث عنه قد يُبطله بســـبب العُجْبُ أو الريـــاء، بل يكتم، وعســـى الله أن يتقبل، ويغفر

التقصـــير والزلل؛ فإن العبـــد مهما بلغ في تجويـــد عبادته، فالتقصير لا بـــد منه، وقد قالت الملائكة الســـاجدون، الذين يســـبحون الليل والنهار لا يفترون: «سبحانك ربنا! ما عبدناك حق عبادتك»[1]، والله المستعان.

❋

(١) المستدرك (رقم٤٥٠٢).

عندما يجوع القلب

٢٥/٩/١٤٣٦هـ

إذا ذُكـر الجوعُ فلا يكاد ينصرف الذهـنُ إلا للجوع المعروف، لكنْ ثمة نوعٌ مِن الجوع أشـارت له النصوصُ النبويـة، والآثارُ المنقولة عن السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ، تكشـف مظهرًا من مظاهر عنايتهم بسدّ هذا النوع من الجوع، الذي ابتُلي به أكثرُ الخلق، لكنهم لا يشعرون به! لفقدِ الداعي لهذا الشعور أو ضعفه؛ وهو: حياة القلب، واستنارته بنور الوحي.

كمّ مرّ على مسامعنا هذا الدعاءُ النبوي العظيم: «**اللهم، إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشـع، ومن نفس لا تشـبع، ومن دعوة لا يُستجاب لها**»[1]، فتأمل: «**ومن نفس لا تشبع**»، إنه حديثٌ عن القلب إذا جاع، وتطلعت نفسُـه لحطام الدنيـا؛ فيجمع، ويجمع حتى لا يُوقِف جمعَه هذا إلا اصطدامُه بجدار الموت!

ويلفتُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النظرَ إلى هذه الحقيقة بأسـلوبٍ آخر، حين أوصى تاجـرًا من تجّار المسـلمين -وهو حكيم بن حـزام- فيقول له:

(١) رواه مسلم (رقم٢٧٢٢).

«يا حكيم، إن هذا المال خَضِرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يُبارَك له فيه، كالذي يأكل، ولا يشـــبع، اليد العليا خير من اليد الســـفلى»[1]، إنه تحذيـــرٌ غير مباشر من الوصول إلى تلك الحال التي تعوّذ منها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الســـابق، ألا وهي: ظهور أعراضِ هذا الجوع القلبي بالاستشراف والتطلُّع للمال، فهو جوعٌ دائمٌ: «يأكل، ولا يشبع»!

ومن تأمل هذه الحال؛ عرف ورأى أعـــراضَ هذا الجوع على أحوالِ كثيرٍ من الناس الذين أقْفرت قلوبُهم من كنز (القناعة)، وتعطَّلت عندهم حاسةُ ذوقِ لذة (الكفاف)، فتلاشت، أو أوشكت أن تتلاشى من حياتهم جماليةُ صورة (الفلاح)، تلك الثلاثُ التي جمعها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: **«قد أفلح من أسلم، ورُزق كفافًا، وقنَّعه اللهُ بما آتاه»**[2].

وثمة جوعٌ لا يُشـــبهه جوعٌ، ألا وهو: جـــوعُ القلب من لذة القرآن، وتدبُّر آياته، والعيش معه، والأنس بمناجاة الله بكلامه، والتلذّذ بخطابه جَلَّ جَلَالُهُ، وإلى هذا المعنى يُشـــير الخليفةُ الراشد أميرُ المؤمنين عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقولـــه: «لو صحّت قلوبُكم ما شـــبعتم مـــن كلام الله»![3] فلنتأمل هذه الكلمة، ثم لنفتِّش عن مساحة الجوعِ التي تحتل قلوبَنا! ولنفكر في السبب الذي لأجله لا يستطيع الواحدُ منّا أن يُمسك المصحفَ سويعةً من زمن، أو يبقى معه وقتًا يليق به! أو يشـــعر بالمجاهـــدة العظيمة -وكأنه يحمل أثقالًا- إذا ابتدأ بتلاوته! إنه مـــرضٌ أصابَ القلبَ، واعتلّ معه اعتلالًا

---

(١) رواه البخاري (رقم١٤٧٢)، ومسلم (رقم١٠٣٥).

(٢) رواه مسلم (رقم١٠٥٤).

(٣) الزهد لأحمد بن حنبل (رقم٦٨٠)، وفي سنده انقطاع.

جعله يَشعر بالشـبع من أول وجهٍ يقرؤه، ولا يشعر بالجوع والألم عندما يفوته حزبُه منه!

وفي الجملة، فإن جوع القلوب حالٌ تَعرِض لكل أحد، لكن الشـأن بالشعور بهذا الجوع والألم، الذي يدفع لسدِّ جوعتِه، كما يحرص الإنسانُ على سدِّ جوعة البدن.

ومتى ما شـعرنا بالجوع؛ فتلك بدايةُ التصحيح، فمَن جاع بحث عما يسـدُّ جوعتَه، ومَن لم يشـعر فليبحث عن قلبه، وليتذكر أن القلبَ فيه شـعثٌ «لا يلمّه إلا الإقبالُ على الله، وفيه وحشة، لا يزيلها إلا الأنسُ به في خلوته، وفيه حزنٌ لا يُذهبه إلا السرورُ بمعرفته وصِدْق معاملته، وفيه قلقٌ لا يُسكّنه إلا الاجتماعُ عليه، والفرارُ منه إليه، وفيه فاقةٌ لا يَسدُّها إلا محبتُه، والإنابةُ إليه، ودوامُ ذِكره، وصدقُ الإخلاص له، ولو أُعطي الدنيا وما فيها لم تُسَد تلك الفاقةُ منه أبدًا»[1].

❋

(١) مدارج السالكين (٣/ ١٥٦).

لا تنغصوا فرحة العيد

١/ ١٠/ ١٤٣٦هـ

للعيد فرحةٌ وأي فرحة! إنها الفرحةُ بهذا الدين، وإكمال عِدة رمضان: ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[يونس:٥٨][1]، إلا أن هـــذه الفرحة يـــأتي ما ينغّصهـــا في بعض البيوتـــات والعلاقات الاجتماعية، وعلى رأس هذه المنغِّصات:

- القطيعـــة التي توجد بين بعض الأقارب -والد وولد، أو أخ وأخيه- نجح الشيطان في صرْمِ حبالها، وقطعِ وصالها، مع أن عامة الأسباب -إن لم تكن كلها- دنيوية بحتة، أو أشياء يسيرة يمكن تجاوزها وحلُّها إذا وُجـــدت رغبةٌ صادقة من الطرفـــين: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾[النساء:٣٥].

والملاحَـــظ أن مما يطيل أمَـــدَ هذه القطيعـــة: إصرارُ أحدِ الطرفين أو كليهما على اعتذار الطرف الآخر لأن الخطـــأ منه، أو أن الحق له! فيقابله

(١) ينظر مقالٌ سابق بعنوان: «العيد بين عبوديتين»:
http://almuqbil.com/web/?action=articles_inner&show_id=1323

الطرفُ الآخر بمثل هذا الشعور، فمتى يصطلح هذان؟ ومتى يجتمع المتقاطعون والمتهاجرون إذا لم يجتمعوا في العيد؟ أيَسُرّهم أن يُحرَموا من ذلك الفضل الذي حدّث به النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: «**تفتح أبواب الجنة يوم الإثنين، ويوم الخميس؛ فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئًا، إلا رجلًا كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنْظِروا هذين حتى يصطلحا، أنظِروا هذين حتى يصطلحا، أنظِروا هذين حتى يصطلحا**»[1]؟!

ما أسعد ذلك الساعي في رأب الصدع، وترميم العلاقة؛ بالعز في الدنيا قبل الآخرة، كما قال: «وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا»[2]، وما أشد ما ينتظرُ الممتنع من الإصلاح من وعيد تقشعر له الأبدان: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾[محمد:٢٢-٢٣].

■ ومما ينغّص فرحةَ العيد -وله صلةٌ بما سبق-: ما يقع من بعض الناس -خصوصًا ممن له حقٌّ لسِنِّه أو عِلمه أو مكانته الاجتماعية- من كثرةِ العتاب على الآخرين، سواء ممن لم يتصل أو يَزُر، أو يهنّئ، أو يُعايد!

ومع الاحتفاظ بحق كل إنسان، وأنه ينبغي إنزاله منزلته؛ فإن من الأصلح للقلوب أن تتسع لالتماس المعاذير للناس، فالصوارف والعوائق في عصرنا كثرت، وزادت، ولربما عَتَب أحدُنا على شخص، واستبطأ زيارَتَه أو اتصاله، وهذا المعاتَب مريض، أو نزلت به نازلةٌ اجتماعيةٌ لا يُحب أن يَعلم بها أحدٌ، «ومن لم يعاشر الناس على لزوم الإغضاء عما

---

(١) مسلم ح (٢٥٦٥).

(٢) مسلم ح (٢٥٨٨).

يأتون من المكروه، وترك التوقّع لما يأتــون من المحبوب؛ كان إلى تكدير عيشـــه أقرب منه إلى صفائه، وإلى أن يدفعه الوقتُ إلى العداوة والبغضاء أقرب منه إلى أن ينال منهم الوداد وترك الشـــحناء»[1]، وصدق مَن قال: «ومَن أحوجك إلى العتب؛ فقد وطّن نفسَه على الهجرة».

■ وثالث هـــذه المنغصّات في العيـــد -وهي أحدُ أســـباب القطيعة في الســـنوات الأخيرة في مجتمعنا- هـــو ما يحصل مِن توسّـــعٍ عددٍ من النســـاء في اللباس، بحيث تتجاوز ما يمليه الحيـــاء، وتوجبه المروءةُ مِن مراعاة اللبس المحتشـــم، ولربما استحضرتْ بعضُ النساء بعضَ الأقوال الفقهية التي تتحدث عن عورة المرأة أمام المرأة، وليس المقامُ هنا مقامَ حديثٍ عن البحث الفقهي؛ بل المراد أن المرأة العاقلة تراعي الجوانبَ التربوية، وآثارَ هذا التوســـع في مثل هذه الألبسة، وخطرَها على الأجيال الناشـــئة، فمِـــن المعلوم أن هذا التوســـع لم يأتِ في يوم وليلة، بل كانت بدايتُه بتوسّعٍ قليل حتى وصل الحالُ إلى مآسٍ يندى لها جبينُ الحياء؛ مِنْ كشـــفٍ لمواضع من الجسد يستحي الإنسانُ من ذكرها! وهكذا بدايةُ تفشّي السفور في بعض بلاد الإسلام كما لا يخفى.

ولنا أن نتســـاءل: ماذا يُتوقع من طفلةٍ تنشـــأ في أجواء كهذه؟ وكيف سيكون لباسها بعد سنوات حين تبلغ ســـنَّ النساء البالغات؟ ألا يكفي تكسّر هيبة الحشمة في نفسها؟ وانهيار حاجب الحياء من اللبس العاري؟

وهذا النوع من الألبســـة مع مخالفته لظاهـــر النصوص التي تأمر بألا

(١) روضة العقلاء (ص٧٢).

تكشـف المرأةُ إلا ما جرت العادةُ بكشـفه عند محارمها من الرجال؛ إلا أنه أيضًا -وهذا من شـؤمه- سـبَبٌ في قطيعة بعض الأُسر لاجتماعات أقاربهم! بسـبب إصرار بعض الأخوات -هداهـن الله- على هذا النوع من الألبسـة، وكأن الجمال لا يتم إلا بهذا التعري! فتحّول العيدُ إلى زمنِ شحنٍ للنفوس على بعض، بدلًا من صفائها واجتماعها!

وإني أوجّه دعوةً لكل رجـلٍ ولّاه اللهُ أمرَ زوجةٍ أو بنتٍ أن ينتبه لهذا الأمـر: «فكلكم راعٍ وكلكم مسـؤول عن رعيتـه»[1]، وأهيب بأختي المسلمة -أُمًّا كانت أم زوجة- أن تتقي الله تعالى فيما تلبس، وأن تعلم أن الله سـائلها عما تحتها من البنات، «**والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها**»، ولتتذكر أن ضغط الواقع -الذي تحتج به بعضُهن- يَذهب من قلبهـا إذا تذكرت أمثال هـذه الآيات التي تصـف هذه اللحظات المهيبـة: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾[البقـرة:٢٨١]، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ٩٤ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾[مريـم:٩٣-٩٥]، ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾[النحل:١١١].

وبالجملة، إذا لم يكن العيدُ فرصة للتصافي، وإظهار مشـاعر البهجة والفرح، وزيادة عُرى المودة والمحبة؛ كان مجرّد ورقة على التقويم مكتوب فيها: (١ شوال)! فرحم الله مَن كان سببًا في شيوع الرحمة، وجمع الشمل، وإرضاء الرحمن، وإغاظة الشيطان، في هذا اليوم العظيم، الذي جعله اللهُ يومَ فرحٍ وسرورٍ، ويومَ شكر على تمام النعمة، وإكمال العِدّة.

---

(١) رواه البخاري (رقم٨٩٣)، ومسلم (رقم١٨٢٩).

المبدأ

٧/ ١٠/ ١٤٣٦هـ

حدّثني أحدُ الأصدقاء أنه انخرط في لجنةٍ من اللجان، وحُدّد لها وقتٌ دوريٌّ تجتمع فيه، وكان رئيس اللجنة يحدّد الاجتماعَ بوقتٍ معيّن، فيقول صاحبي: كنتُ أحرص على الحضور في الوقت، ولكنني ضِقتُ ذرعًا بأكثر أعضاء اللجنة الذين يتأخرون من عشر إلى عشرين دقيقة عن الوقت المحدَّد! فقررتُ أن أتأخر مثلَهم، وصارحتُ رئيسَ اللجنة بذلك، إذِ التأخر -بحساب الزمن التراكمي- سأخسر معه ساعةً من الزمن خلال شهر، ونصفَ يوم في سنة، فقال لي رئيس اللجنة: لا تترك مبدأك؛ لأن غيرك لا يلتزم به! فانتفعتُ بكلمته هذه في حياتي.

هذا الموقف يتكرر في حياتنا بصور كثيرة، وعلى أصعدة مختلفة، فتجد كثيرًا من الناس يضحّي بمبادئه؛ لأن الآخرين أخَلّوا بها معه!

والمتأمل في السُّنّة النبوية يجد أن هذه القضية كانت واضحةً تمام الوضوح في سيرته ﷺ، فلم يكن ليترك مبادِئه وأخلاقَه لأن خصمَه أو الطرفَ الآخر أخلّ بها، أو قصّر فيها، فكم لقيَ مِن قومِه

ما لقـي، وعانى ما عانى، فلم يجـد منهم، -وهو في مقـام القدرة على القصاص- إلا العفوَ والمسامحةَ؛ لأنها مبدأ عنده.

وفي سبيل ترسيخ الثبات على المبدأ، وعدم التنازل عنه لأن الشخص المقابل قصّر فيه؛ تأتي تربيـةُ الله لنبيّه ﷺ بقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[الأعراف:١٩٩].

وكان النبي ﷺ يُربي أصحابَه عـلى ذلك قولًا وعملًا، ومن ذلـك: أن رجلًا قال: يا رسـول الله، إن لي قرابة أَصِلُهـم، ويَقطعوني، وأُحسِن إليهم ويُسـيئون إليّ، وأَحلم عنهم، ويَجهلون عليّ، فقال: «**لئن كنتَ كما قلت، فكأنما تسَفُّهم المَلَّ، ولا يزال معك من الله ظهيرٌ عليهم ما دمتَ على ذلك**»(١).

ويقـول حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: ما منعني أن أشـهد بـدرًا إلا أني خرجت أنا وأبي حسـيل، قال: فأَخَذَنا كفارُ قريش، قالوا: إنكم تريدون محمدًا، فقلنا: ما نريده، ما نريـد إلا المدينة، فأخذوا منا عهدَ الله وميثاقَه لَنَنْصرفن إلى المدينة، ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر؛ فقال: «**انصرفا، نَفِي لهم بعهدهم، ونستعين اللهَ عليهم**»(٢)، وقصة أبي جندل رضي الله عنه أيامَ صلح الحديبية ليسـت ببعيدة، وفي هذين الموقفين جميعًا -وغيرهما- يرسـلُ النبيُّ ﷺ رسـالةً واضحة، وهي أن الصدقَ والوفاءَ بالعهد دينٌ ومبدأٌ، لا يُتْركان لحرب، ولا عداوة.

---

(١) رواه مسلم (رقم٢٥٥٨).

(٢) رواه مسلم (رقم١٧٨٧).

وفي حياتنـــا اليومية قد يُبتلى بعضُنا بأنـــاسٍ -كما ابتُلي ذلك الصحابيُّ الـــذي وجد الجفاءَ من قرابتـــه، وكما ابتُلي صديقي الـــذي أشرتُ إليه- بموقفٍ لو أراد أن يعامِل بالمثل لســـاغ له ذلك، لكن هذا ليس من شأن النبلاء والكُمَّلِ من الناس؛ لأن العاقلَ يصون مبادئَه كما يَصون سُـــمْعتَه وعِرضَه.

ومن النماذج المشرقة من حياة الدعاة المعاصرين، ما ذكره الدكتور تقي الدين الهلالي عن نفســـه، في كتابه الماتع (الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة)، حيث التزم مبدأ الصدق في جميع الأحوال والظروف الصعبة التي مرّ بها، واختار لنفســـه عدمَ الأخذ بالمعاريض -ولو مع الأعداء- لأنه يرى أن الداعيةَ يَسقط إذا لم يَصدُق، وأن تاجَ دعوته ورأسَ ماله فيها هو الصدق!

وما من شـــكٍّ أن التربية على هذا المبدأ ينبغي أن تبقى أصلًا لا يتنازل عنه الإنسان، ويبقى تقديرُ الشخص للمواقف الفردية، وما ينبغي تجاهها خاضعًا للظـــروف المحيطة بكل موقف، والموفَّق من رُزِق الحكمة، ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا.

الثروة المُهدَرة

١٣/ ١٠/ ١٤٣٦هـ

جمعني لقاءٌ قبل يومـــين بأحد طلابنا المبتَعثين للدراســـة في أمريكا، فســـألته في رحلته -التي امتدت ثلاث سنوات ونصف تقريبًا- عن أبرز ما اســـتفاده مِنها، فذكر لي أمورًا، ونصّ على أن أهمها هو: الإحســـاس بقيمة الزمن، والحياة لهدف! حتى إنني أتضايق، وأشعر بالغبن حينما أرى أصحابي الذين كنتُ معهم قبل الســـفر، ما زالوا يُهدرون هذه الساعات الطويلة بلا مقابل؛ من إنتاج ينفعهم، وينفع بلدَهم وأمَّتهم!

فقلتُ له: ألا تعتقـــد أن ديننا يحث على ذلك، ويُعين عليه؟ قال: بلى، لكـــن البيئة التي نعيش فيها تقول: لا! هنـــا توقفتُ قليلًا، وبدأتُ أقلّب الفِكر سريعًـــا: هل بيئتنا كذلك، فوجدتُ الأمر -إلى حد كبير- كذلك!

ومن المحزن أن تكون النتيجة كذلك، والمسلمُ يقرأ في (جزء عمّ) فقط عشرات الآيات التي تتحدث عن الوقت، إما قسَمًا به، أو إشارة إلى أهميته وفضله، ومع هذا فحال المسلمين عمومًا في إهدار هذه الثروة يَبعث على الأســـى، وتتجلى هذه المأساةُ بأبشـــع صورها في الإجازة الصيفية، التي يتخفف فيها ملايينُ الطلاب والمعلّمين من الارتباط بالمدارس النظامية!

إن الحديث عن (اغتنام) الوقت لا يعني عدمَ التَّوسعة على النفس في المباح، كلا! وإنما الحديث عـــن (ثروة مهدرة) يراها العاقل تذوب أمامَه ككرة ثلجٍ ضخمة وُضِعت في ردأة الضحى، والشمسُ في قمّة حرارتها.

إن غيابَ الهدف الواضح من الحياة، وضعفَ اســـتحضارِ النصوص الشرعية التي تدفعُ بالنفس لتحرص على الوقت؛ لمن أعظم أسباب تفشي هذا الهدْر المؤلم للحياة.

لا أدري كيف يمرُّ حديثٌ كهذا على مسلمٍ، ولا يحرّك فيه ساكنًا تجاه هذا الوقـــت: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**»![1] ألا يجد في كلمة «مغبون» ما يحفزّه للغيرة على وقته؟!

لقد فَقِهَ ســـلفُنا الصالحُ قيمـــةَ الزمن، وعرفوا أهميـــة الحفاظ عليه؛ فعبّروا عن ذلـــك بكلمات كثيرة ومتنوعة[2]، ومن أحســـن ما مرّ بي من تلكـــم الكلمات، كلمة يحيى بن معاذ الـــرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين قال: «الفوت -ضياع الوقت- أشـــد من الموت؛ لأن الفوت انقطاع عن الحق، والموت انقطاع عن الخلق»[3].

ومَنْ طالع (صيـــد الخاطر) لابن الجوزي؛ أحسّ بالزفرات تنطق من بين الأســـطر على تفريط أكثر الخلق في أعمارهم، وهو الذي أرسل تلك النصيحة لولده، بعد أن ذاق الأبُ لذةَ اغتنـــامِ الوقت، وبركةَ المحافظةِ

---

(١) رواه البخاري (رقم٦٤١٢).

(٢) وقد كُتب في الـــكلام على الزمن وأهميته كتب كثيرة، منهـــا: (قيمة الزمن عند العلماء) لعبدالفتاح أبو غدة، و(سوانح وتأملات في قيمة الزمن) لخلدون الأحدب.

(٣) وفيات الأعيان (٦/ ١٦٥).

عليه، قائلًا: «الكسلُ عن الفضائل بئس الرفيق! وحبُّ الراحة يورث من الندم ما يربو على كل لذة، فانتبه! واعلم يا بني، أن الأيام تبسط ساعات، والساعاتُ تنبسط أنفاسًا، وكل نفَسٍ خزانة، فاحذر أن يذهب نَفَسٌ بغير شيء، فترى في القيامة خزانة فارغة، فتندم!»[1].

إننا أمام ثقافة سـيئةٍ في المجتمع، وهي التفنن في تضييع الزمن، وإن شـئت فقل: في قتل الحيـاة، ونحرِ الوقت، ولا بد مـن تكاتف الجميع لتخفيف آثارها.

وفي تقديـري أن أول العلاج يبدأ من البيت، فـإن البيت الذي يربّي أفـرادَه على الحفاظ عـلى (الحياة)؛ سينشـأ أكثر اهتمامًـا من غيره -في الغالب- بالوقت، ومحاولة استثماره.

إن من أهمّ مـا يتلقاه أفرادُ الأسرة، وطلابُ المـدارس من والديهم ومعلميهم هو: ثقافة الغيرة على الوقت، وبيان سبل المحافظة عليه، التي من أهمها وأعظمها أثرًا:

- تنظيم الأعمال وجدولتها.
- والبعدُ عن مجالس الفارغين الذين لا أهداف قيّمة لهم.
- وتركُ الفضول في كل شيء.
- ومصاحبةُ الجادّين، الحافظين لأوقاتهم.
- وقراءةُ أخبار المؤثرين في مجتمعاتهم.

---

(١) لفتة الكبد في نصيحة الولد (ص٥).

- والتلذذُ بحلاوة الإنجاز للأعمال.
- وسؤالُ الله من قبلُ ومِنْ بَعْدُ البركةَ في الوقت.

فهـــذه كلها من أعظـــم الحوافز على معرفة شرف الزمـــان واغتنامه، وتقوّي في القلب الغيرة على ضياعه، أشـــدّ من غيرته على ضياع شيء مِن ماله.

الرموز في مرمى الغلاة

١٩/ ١٠/ ١٤٣٦هـ

مصطلح (الرموز) في حديث الناس يشـير إلى بعض فئات المجتمع ذات التأثير فيه؛ كالسياسي، والشرعي، والاجتماعي.

والرموز الشرعية هي أكثر هذه الفئات التي يحرص الغلاةُ -وعموم المنحرفين فكريًّا- على إسقاطها، لعِلمهم بقوة تأثيرها -ليس على شباب بلادهم فحسـب، بل- في العالم أجمع، وهم في هذا يطبّقون -شعروا أم لم يشـعروا- الطريقة اليهودية التي نصّـت عليها (بروتوكولات حكماء صهيون)، التي تقول: «وقد عنينـا عناية عظيمة بالحط من كرامة رجال الدّين في أعين الناس -ويعنون برجال الدين هنا: العلماء من غير اليهود-، وبذلك نجحنا في الإضرار برسالتهم التي كان يمكن أن تكون عقبة كؤودًا في طريقنا، وإن نفوذ رجال الدِّين على النـاس ليتضاءل يومًا فيومًا»[1].

بـل هذا منهـجٌ معروفٌ سـلكه قديـمًا رؤوسُ أهل البـدع؛ فهذا عمرو بن عبيد -أحـد رؤوس المعتزلة- يقول: «لو شـهد عندي عليٌّ،

(١) بروتوكولات حكماء صهيون (١٨٧).

وطلحـــة، والزبير، وعثمان؛ عـــلى شِراكِ نعل ما أجزتُ شـــهادتهم!!»، وقال مَرةً مستنقصًا الإمامين الحســـن البصري، ومحمد بن سيرين: «ألا تسمعون من كلام الحسن وابن سيرين عندما تسمعون إلا خِرَق حيضة مطروحة؟!»[1].

فما أشبه الليلة بالبارحة! فأربعة من المبشَّرين بالجنّة لا تُقبلُ شهادتهم عند هذا الرقيع! واليوم يردِّدُ بعضُ الغلاة ومَن شـــابههم عبارةَ عمروٍ في علماء كبار، ويقولون عنهم: إنهم علماء حيض ونفاس!

إن الشـــاب في بواكير عمره يحتاج إلى قدوة يتمثّلها، ورمزٍ يتأسّى به، وفي البيئة المتديّنـــة تبقى فئةُ العلماء الكبار، والدعـــاةُ المؤثّرون؛ من أكثر الرموز الشرعيـــة تأثيرًا في هذه الطبقة، وكلما كان (الرمز) ذا قَدرٍ ومكانة كبيرة في نفس الشاب؛ صار مصدر إلهامٍ للشاب في حياته، ودافعًا للعمل ومزيدٍ من الفأل، فإذا حُطّم الرمزُ في نفســـه؛ فهذا يعني تحطّمَ مستقبله، وإغلاقَ نافذة الفأل التي يتنفس منها عبيرَ الأمل في هذه الأجواء المحزنة!

لهذا يلجأ الغلاة -مثل داعش وغيرهم- إلى الطريقة اليهودية في تشويه صورة هذه الرموز! يَسْبِقُ هذا كلّه حملةٌ ضخمة لتشويه الدولة التي ينتمي لها، فيُصَوَّرُ هؤلاء العلماء والدعاة في ذهن الشـــاب أنهم علماءُ سلاطين، وعُبّادُ مناصب، وطُلّابُ مال، في دأبٍ عجيب على طمسِ عشراتِ السنين التـــي بَذَلها هؤلاء العلماءُ والدعاة في تعليم الناس ودعوتهم، وإن وجدوا زلةً هنا أو هناك ضخّموها، وأشهروها؛ في شحنٍ متواصل لتحطيم هذه الرموز في عقل هذا الشـــاب حتى تتهاوى تلك الرموزُ أمامَ عينيه، فبدلًا

(١) ميزان الاعتدال (٣/ ٢٧٥).

مـن بقاء هيبةِ التقدير والإجلال اللائق بهم؛ تتحطم هذه الصورةُ لينتقل ذهنُه مباشرةً إلى الطرف الآخر، ليكون مشـاركًا في هذه الحملة بنفسـه، وتبدأ معها رحلـةُ البحث عن رموزٍ أخرى -إذْ لا بد له من ذلك- فأين هذه الرموز؟ وما صفاتهم؟

هنا يبدأ الدواعش -وأشـباههم من الغلاة- في طرح (نماذج مُلْهِمة) للشـاب، ورموزٍ منتقاة بعناية، تلتقي مع روح الشـاب المحطّمة، التي صـارت تلهث للبحث عن رمـزٍ تَقتدي به بعد سـقوط رموز بلده من ذهنـه، فيُظهرها التنظيم في صورةِ مجاهدٍ، فـارق أهلَه وولدَه ووطنَه من أجل إعلاء كلمة الله! وضحّى بدنياه الزائلة! ثم يحرصُ هؤلاء على إبراز الصـورة الرمزية التي يظهر بها هؤلاء القدوات الجدد، فهو يظهر بلباسٍ خاص -عمامة وقميص وإزار-، وشـعرٍ طويل، يحمل السـلاح، وربما وضعه خلفه، في صورةٍ تجعله يتصـور الفاتحين الأوائل -وهذا مقصودٌ منهم-، ليرسـخ في ذهنه أن هؤلاء هم القـدوات الحقيقية الذين يجب التأسي بهم، واللحـاقُ بركْبهم، وأنهم في غايـة الطُّهر والنقاء! بخلاف القدوات الأولى التي كان يحترمها، فهي عنده غارقةٌ في الفساد، ومنغمسةٌ في الدنيا، يجب إسقاطُها فضلًا على أن تكون محلّ تأسٍّ واقتداء!

إن تحطيمَ الرموز الشرعية لا يعود ضررُه على الشاب وحدَه، بل على الأمّة كلها؛ لأن هذا يعني باختصار: اسـتيراد (رموز مجهولةٍ) لا يُعْرفُ تاريخها، ولا سـابقتها في علـمٍ ولا جهادٍ صحيح، بل قـد تكون تابعةً لاستخبارات أجنبية موجّهة ضد دينه وبلده الذي خرج منه، وحينها لا تسـلْ عن الآثار المدمّرة لعقل هذا الشـاب ووعيه، فهل أدركتَ -أخي

الشاب- كيف يخطِّط الغلاةُ لاختطاف عقلك؟ وجَعْلِكَ في خندقٍ بعيدٍ عن الرموز الحقيقة التي عرفها الناسُ بعِلمِها ودعوتها؟ لتكون في محضنِ وتوجيهِ أناسٍ لا يمكن أن تَكتب عن أحدهم ربعَ صفحة تعرّفك بحاله وشخصيته، بل أقصى ما تعرفه لقبٌ وكنيةٌ وشابٌّ حديث السنّ، لم تعركه التجارب، ولم يرســخ في علم! فهل تجعل دينك وحياتك رهنًا لهؤلاء؟ وقد قال السلف: «إن هذا العلم دِين، فانظروا عمّن تأخذون دينكم»[1].

❋

(١) انظر: سير أعلام النبلاء. ط الرسالة (٤/ ٦١١)، (٥/ ٣٤٣).

نفحةٌ مكيةٌ

٢٥/ ١٠/ ١٤٣٦هـ

ليس شيء أحبّ إلى القلب من تلك اللحظات التي يُوَفّقُ فيها لزيارة المسجد الحرام، والتمتع برؤية الكعبة المشرفة، فإنها ليست مجرد زيارةٍ للبيت الحرام، وإتمامٍ لمناسك الحج أو العمرة، إنها أبعدُ من ذلك!

لقد طاف بي طائفٌ من الذكريات التاريخية حين زرتُ مكةَ المكرمةَ شرّفها الله -في الأسبوع الماضي- بل يَرِدُني هذا كلما زرتُ البيتَ الحرام، وتساءلتُ وشريطُ الذكريات يمرُّ كلمح البصر، أَنْظُرُ هنا وهناك، وأقول في نفسي: هنا كان صناديدُ قريش، وهم يجتمعون في منتداهم بجوار الكعبة؛ ليمارسوا عادتهم في السخرية والصد عن الاستماع لهذا النبي الجديد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!

وهناك لاحتْ لي صورةُ قيامِ أشقاهم ليُلقي سلا الجزور على ظهره الشريف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو ساجد، ولم يجد له في تلك الساعة مُعينًا من الناس إلا ابنته الصغيرة فاطمة، التي لم تملك حينها إلا إرسال رسائل الشتم لهم على سوء صنيعهم! أما هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلم يَرُعْهم إلا وهو يرفع يديه قائلًا: «**اللهم، عليك الملأ من قريش، اللهم، عليك أبا جهل**

ابن هشـــام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وعقبة بن أبي معيط، وأميّة ابن خلـــف، أو أبي بن خلف»[1]، فأصابتهم الدعـــوةُ؛ فجمعهم الله شّر مجمَع في قليب بدر، وهم جيف!

وحـــين وقفتُ على الصفا، تذكرتُ صعـــودَه ﷺ عليه مناديًا ذلك النداء المشـــفِق: «يا صباحاه»! فاجتمعوا إليه، فقال: «يا بني فلان، يا بنـــي فلان، يا بني فـــلان، يا بني عبـــد مناف، يا بني عبـــد المطلب»! فاجتمعـــوا إليه، فقال: **«أرأيتكم لو أخبرتُكم أن خيلًا تخرج بسَـــفْح هذا الجبـــل؛ أكنتم مصدِّقيّ؟»** قالوا: ما جرّبنا عليـــك كذِبًا، قال: **«فإني نذير لكم بين يَدي عذابٍ شـــديد»**، قال: فقال أبو لهب: تبًا لك! أما جمعْتنا إلا لهذا؟! ثم قام، فنزل قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[المسد:١][2].

سبحان الله! كم هي وقاحة عمّه هذا الذي قابله بهذا السوء! أَمَا إنه لو ســـكت لكان أهون، ولكن: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾[المائـــدة:٤١]، فاستمر هذا الشـــقيُّ أبو لهب محرّضًا على ابن أخيه، بل ومتتبعًا للناس في موسم الحجّ محذِّرًا من اتباعه!

فقلـــتُ في نفسي -وأنا أرى أمامي مســـلمين من الصـــين، وإفريقيا السوداء، وأوروبا، وشرق آســـيا، والهند، فضلًا على بقية العرب-: أين أنت أيها الشـــقي؟ لِترى كم هم الذين يقولون: أشـــهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله؟! قالوها وهم لم يَرَوه، وأحبّوه، ولم تكتحل

---

(١) رواه البخاري (رقم٣١٨٥)، ومسلم (رقم١٧٩٤)، واللفظ للبخاري.

(٢) رواه البخاري (رقم٤٧٧٠)، ومسلم (رقم٢٠٨).

عيونُهم بلقياه، ولو طُلبتْ أرواحُهم فداء له لقدّموها زرافاتٍ ووحدانًا! أيـــن أنت لتدرك هذه الحقيقة التي وعـــد اللهُ بها -ومن أصدق وعدًا منه ســـبحانه-: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[التوبة: ٣٢-٣٣].

لقد كانـــت منتديات قريش أول البعثة تعـــجّ بمنكر القول والعمل، وبرمْي هذا النبي الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالنقائص، ولم يمض على هذا سوى زمنٍ يســـير حتى صارت جنبـــاتُ البيت الحرام تعـــجّ بحِلَق الذِّكر التي لا يخلو درسٌ فيها من الإعلان لله بالتوحيد، ولنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرسالة!

إنها مشاعر عابرة، لكنها تورث في القلب من المعاني الشيء الكثير..! إنها مشـــاعرُ تزيد الإيمان، وتعزز اليقين بأن ديـــن الله ظاهرٌ، وإن كاد له أعداؤه، وبـــأن النصر له وإن حُورِب، ولكن مـــن الذي يركب مراكب الشرف في نصرته والدفاع عنه، ونشر قِيَمِه ومبادئه؟

إن كل مســـلمٍ يلتزم بالإســـلام حقًّا، قولًا وعملًا، مظهرًا وسلوكًا؛ هو مســـهم في ذلك، فالنصرُ ليس بالسيف والدبابة فحسب، بل هو نصرٌ تتنـــوع صورُه، إنه دينٌ ينتصر بالقيم والأخلاق -كما انتصر بها (الصادق الأمـــين) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وينتصرُ بالعلم النافـــع والعمل الصالح: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾[التوبة:٣٣]، وينتصرُ بالســـيف -إذا وُجد ســـببه- فهنيئًا لمن نصر اللهُ به دينَه، والويل لمن صدّ عنه بقوله وفعله، أو حاربه بماله وإعلامه: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾[الأنفال:٣٦].

معلّمٌ في ذاكرة تلميذ

١/ ١١/ ١٤٣٦هـ

دعني أنتقل وإياك -أخي القارئ الكريم- بمشـــاعرنا وأشواقنا إلى طيبةَ الطيّبةِ، حيث النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يصلي بأصحابه رضوان الله عليهم، وكان فيهم معاوية بن الحكم السُّلَمي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الذي حدّثنا عن قصته التي وقعت حين عطـــس رجلٌ من القوم، قال: فقلـــت: يرحمك الله؛ فرماني القومُ بأبصارهم، فقلت: واثكل أمّياه! ما شأنكم تنظرون إليّ؟! فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم! فلما رأيتُهم يصمّتونني -أي يسكتونني- ســـكتُّ، فلما صلى رســـولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فبأبي هو وأمـــي، ما رأيتُ معلمًا قبله ولا بعده أحســـنَ تعليمًا منه، فوالله ما كهَرني، ولا ضربني، ولا شـــتمني! قال: «إن هذه الصلاةَ لا يصلح فيها شيءٌ من كلام الناس، إنما هو التسبيح، والتكبير، وقراءة القرآن»[1].

هـــذا موقفٌ بين ســـيّد المعلّمـــين وإمامهـــم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وبين أَحد تلاميـــذه، عالجَ فيه الخطـــأَ الذي وقع فيه تلميذُه بأســـلوبٍ بقي أثرُه في وجدانه محفورًا، فصـــار يحدّث به بعد ذلك حديثَ المعجَب بأســـلوب

(١) رواه مسلم (رقم٥٣٧).

معلّمه، وطريقة إرشاده! استدعاه، ثم أخبره بالخطأ، ولم يبادره بالتعنيف أمامَ النـــاس، ولا بالتبكيت بينه وبين تلميـــذه، ولا عبس في وجهه، ثم شرح له وجـــه الخطأ الذي وقع فيه، وبيّن الطريقـــةَ الصحيحة، كلّ هذا جعلـــه يقول وبصوت مســـموع: «فبأبي هو وأمي، ما رأيـــتُ معلمًا قبله ولا بعده أحســـن تعليمًا منه، فوالله ما كهرني، ولا ضربني، ولا شتمني!» صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

تذكرتُ هذا الموقف، وأنا أستمع لصديقي الذي يحدّثني -وبمرارة- عن موقفٍ حصل له مع أحد أســـاتذته في المرحلـــة الابتدائية -أي إنهم أطفال صغار-، حيث دخل الأســـتاذُ ومعه عصًا غليظة، فأمرني وبعضَ الزملاء بالقيام والاصطفاف صفًّا إلى الجدار، وبدأ بضربنا واحدًا واحدًا، ومن شـــدة الضرب فإن أحد مَنْ كان ينتظر دورَه في هذا المشـــهد أُغمي عليه قبـــل أن يَصِله الدَّور!! ثم يواصل صديقـــي حديثَه قائلًا: إلى هذه اللحظـــة -وقد مضى على هذا الموقف قرابـــة الأربعين عامًا- لا أدري لِمَ ضُرِبْنا؟! وما الجُـــرْم الذي أخطأنا فيه لنُعاقَب هذا العقاب؟! ووالله كلما تذكّرتُ أحاديثَ الصفح والعفو في عرَفة والعشر الأواخر يلوح لي ذلك المعلّم، فأجاهد نفسي، وأغالبها على العفو عنه؛ فلا أستطيع، أو أجد كُلفة شديدة في هذا!

تأمـــل الفرق -أخي القارئ- بين الموقِفـــين! كلاهما بقي في الذاكرة، لكن شتّان بينهما!

فرقٌ بين تلميذ يتحدّث بشوق وحب عن معلّمه الذي أرشده، وبيّن لـــه وجهَ الصواب، ولم يواجهه بما يكره، وبـــين تلميذٍ ترى انعقادَ جبينه،

وتسمع حشرجةَ صدره، وتشـــعر بضيق نَفَسِه وهو يتحدث عن مدرس ظلَمه، وضرَبه بغير حق!

يمـــرُّ علينا -معشرَ المعلمين والمعلّمات- مئـــاتٌ وربما آلافُ الطلابِ في مدارســـنا وجامعاتنا، وقد لا يبقى في ذاكرتنـــا منهم إلا القليل، لكن من المؤكّد أننا -وبفضل الله- نستطيع أن نحفر أسماءَنا في ذاكرة تلاميذنا بحسنِ تعاملنا، وجميلِ أخلاقنا ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا، فليس بالعلم وحْده نستطيع أن نكســـب تلاميذَنا، ونجعل ذلك وسيلةً لإيصال الحق والعلم الذي نعلّمهم إياه، بل هذا -كما يشهد التاريخُ والواقع- لا يكفي ما لم يقترن بخُلُق حســـن، ورحمةٍ بالمتعلِّم، وفي التنزيل -في معرض الثناء على الخـــضر عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[الكهف:٦٥].

لقـــد كنا طلابًا قبل أن نكون معلِّمين، فلننظـــر في الذي كنا نحبّه من أساتذتنا وشيوخنا من جميل الفعال؛ فلنفعله مع طلابنا، فإنهم يحبون هذا منّا، والعكس بالعكس.

هبوط قلبٍ في مدرج المطار

٧/ ١١/ ١٤٣٦هـ

كان صاحبي في طريق عودته من سـفرٍ خارجـي، وفي أثناء صعوده للطائـرة؛ أصابه هبوطٌ مفاجئ في القلب، وبعـد الاطمئنان على حالته؛ أقلعت الطائرة، وفورَ وصوله ذهب صاحبي إلى قِسـم الطوارئ في أحَد المستشفيات القريبة من مطار الرياض؛ ليطمئن على حالته قبل شروعه في سفرٍ جديدٍ، ثم بعد يومين ذهب صاحبي لطبيبٍ استشاري متخصص في أمراض القلب، وبعد الفحص تبيّن له أن عنده إجهادًا وتوترًا شديدين، ونصحه الطبيبُ بالتخفيف عن نفسه، وقال له -بعد أن استمع لحالته-: لقد مرّ بي أناسٌ مثلك ممن قال فيهم المتنبي:

وإذا كانتِ النـفـوسُ كبـــارًا

تَعبتْ في مرادِها الأجســـامُ

ولكنك يا أخي، لن تسـتطيع أن تأتي على كلِّ أعمالك في وقتٍ قصير، فَقَلّ مَن مات وليس له حاجة ما قضاها، على حدّ قول الصَّلَتان العَبْدي:

نـروحُ ونـغـدو لحـاجـاتِنـا

وحـاجـةُ مَنْ عـاشَ لا تَنقـضي

تمـوتُ مـع المـرءِ حـاجـاتُـه

وتَبقى لـه حـاجـةٌ مـا بقـي!

فارفق بجسدِك، وأعطِه حقَّه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**إن لربك عليك حقًّا، ولنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا؛ فأعط كلَّ ذي حقٍّ حقَّه**»(١).

واستطرد الطبيبُ قائلًا: أُكْبِرُ فيكم أخي، هذه الهمّة، ولكن ليس صحيحًا أن تُهمِلوا أجسادَكم، والاستمتاع بحياتكم، وتُقصِّروا في ذَوق متعة الجلوس مع أولادِكم وأهلِكم بحجّة أنكم مشغولون! أو تُهمِلوا رياضةَ أبدانكم ولو بالمشي! حتى إذا سقَطَ أحدُكم بجلطة، أو مرضٍ مُقعِد؛ ذهب يلتمس الحلّ، ويُعيد حساباته! وقد كان بإمكانه أن يتلافى ذلك بفضل الله.

خرج صاحبي من الطبيب، وهو يفكّر في كلام الدكتور الناصح، ويتأمل فيما قاله؛ فوجد أنه بالفعل يحتاج إلى مراجعةِ حساباته فيما يخص زحمةَ جدول أعماله، وإرهاق نفسه بما قد يقطعه عن الاستمرار في العطاء بعد سنوات قليلة، وهو لا يزال بعدُ في قوّته!

هنا، لاح لصاحبي حديثٌ عن عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قصة تشديده على نفسه بالعبادة، حين قال له الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا عبدالله، ألم أُخبَر أنك تصوم النهار، وتقوم الليل؟**»، فقلت: بلى، يا رسول الله، قال: «**فلا تَفعل! صمْ وأفطرْ، وقمْ ونمْ؛ فإن لجسدك عليك حقًّا، وإن**

---

(١) رواه البخاري (رقم١٩٦٨).

لعينـــك عليك حقًّا، وإن لزوجك عليك حقًّـــا، وإن لزَوْرك عليك حقًّا، وإن بحسْـــبِك أن تصوم كلّ شـــهرٍ ثلاثةَ أيام، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر كله»، فشدَّدتُ؛ فشُدّد عليّ، قلت: يا رسول الله، إني أجد قوةً! قال: «**فصم صيامَ نبيِّ الله داود** عَلَيْهِ السَّلَامُ، **ولا تَزِد عليه**»، قلـــت: وما كان صيام نبي الله داود عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ قال: «**نصف الدهر**»، فكان عبدالله يقول بعدما كَبِر: يا ليتني قَبلتُ رخصةَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ![1].

إن هذه الوصيـــة النبويـــة العظيمة؛ نموذجٌ مـــشرِق لحرص الشرع على توازن الإنســـان بين مطالب الروح والجسد، وعدم النظر إلى الحال الحاضرة فقط، بل يعيـــش وفق قاعدةِ: «**اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا**»[2].

إن قصة صاحبي، وما ســـبق من حديث الطبيـــب؛ لا يخصّ العلماءَ المنشـــغلين بتعليم الناس أمرَ دِينهم، ولا الدعاةَ الذين يَتنقّلون بين المدُنِ والقرى، ولا للتجّار الذين ألهاهم الصَّفْقُ في الأسواق، وتتبُّع أخبارِ المال والعَقَار؛ بل هو رســـالةٌ لكل مَنْ يركض لاهثًا في ميادين الحياة، أنِ ارفق بنفســـك! وتذكّر أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مات وجيشُ أســـامة لم يذهب إلى الشـــام، وســـنموتُ ولنا حاجاتٌ وحاجات، ولْنُعطِ كل ذي حقٍّ حقّه: بدَنًا، وعَينًـــا، وأهلًا، وزوجًا، وولدًا، وضيفًا؛ فهـــو أصحّ بدَنًا، وأقوى قَلبًا، وأتقى دِينًا.

---

(١) هذا لفظ البخاري (رقم١٩٧٥).

(٢) روي هذا من قول عبدالله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، كما عند الحارث بن أبي أســـامة (رقـــم١٠٩٣)، وبعضهم يرويـــه عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو حديـــث موضوع عليه، والصواب أنه مروي عن عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ينظر: المطالب العالية (١٣/ ٣١٤).

رؤوسُ أقلامٍ... في رؤوسِ أعلام[1]

(٣)

أيامٌ مع أمير المحققين

١٣/ ١١/ ١٤٣٦هـ

عشـــنا خمســـة أيام في جامعتنا الفتيّة -جامعةِ القصيم- عرسًا علميًّا مميزًا، بقدوم المحقق الكبير، (أمير المحقّقين) -كما يصفه به بعضُ محبّيه- أ. د. بشار عوّاد معروف العبيدي، صاحب التحقيقات العلمية الشهيرة الرصينة، التي ارتبطت باســـمه ارتباطَ أســـماءِ مؤلفيها بها، كـ (تهذيب الكمال) للمزي، و(تاريخ بغداد)، وغيرهما.

قد يظنّ بعضُ القراء الكرام أن نفعَ لقاءِ هؤلاءِ الأعلامِ -الذين أفنوا أعمارَهـــم في البحث والتحقيق- مقتصرٌ على الفوائد العلمية فحســـب! بل في لقائهم من الفوائد المتعلقة بســـيرتهم البحثيـــة، وحياتهم العلمية،

(١) هذه المقالة هي الجزء الثالث من سلســـلة -غير مرتبة زمنيًّـــا- بدأتُ الحديثَ فيها عن شـــيخنا المحدث أ. د. أحمد معبد عبدالكريم، ثم عن فضيلة الشيخ المحدث أبي إسحاق الحويني -حفظهما الله-.

والصعوبـــات والعقبات التي واجهتهم؛ مـــا لا يمكن تحصيلُه في كتابٍ معـــاصرٍ، وله من الأثر المعنويِّ في نفوسِ الباحثين ما هو معلومٌ لكل مَن لقي الكبارَ في كل مجال.

ومَـــن الذي يُنكِـــرُ تأثيرَ مشـــاهدة القُدوات العلميـــة أو العملية في الإنســـان! ألسنا نجد في أنفســـنا أثرًا إذا لقي أحدُنا عابدًا أوّاهًا، أو باذلًا خفيًّا، أو ذا خُلقٍ عظيمٍ؟

لقد كانت لقاءات د. بشـــار عامرةً بالبحث والإفادة، خاصةً في مجاله الـــذي برّ فيه كثيرًا مِن أشـــياخه، بَلْه أقرانه، وهو تحقيـــقُ كتب التراث، وضبطُ النصوص.

وقد منّ اللهُ عليّ بحضور أربعةٍ منها، لعلي أسجّل أهم المعالم التي أرى تدوينها في هذه العجالة، ما يفيد عمومَ القرّاء، دون الدخول في تفاصيل الفوائد، التي قد تُهم المختصين أكثر من غيرهم.

أولًا: تراءت لي هذه الجملة المشـــهورة: «من لا تكون له بداية مُحرِقة لا تكون له نهاية مشرقة»، وأنا أســـمع حديثَه عـــن بدايات طلبه للعلم، وما واجه من مشاق، بل ومِن تعرّضه لمحاولة الاغتيال مرات عدة! لكنه تجاوز ذلك كلَّه بفضل الله، ثم بعزيمة الرجال.

ثانيًا: ثمة شيءٌ لا تُخطئه أُذُنُ المســـتمع لأحاديث الدكتور بشار، وهو حبّه للعلم حبًّا بلغ مرحلةَ العشـــق والهيام، وهذا -بعد توفيق الله- أحدُ أهم أسباب ما بلغه من الإنتاج الغزير، ودقّته أيضًا.

سمعته يقول -بعد أن اســـتُكْثر عليه كل هذا الإنتاج وحده-: كتبتُ بأصبعي هذه مئة وخمسين ألف ١٥٠ ألف صفحة!

وســـمعته يقول: إن تســـعين في المئة من أعمالي العلمية كان بعد نيلي درجة الأستاذية (بروفسور)!

تأمّل هذه أخي القارئ الكريم، واعرِض هذه الكلمة على واقع أكثر الذين ينالون هذه الدرجة، الذين يتوقف إنتاجُهم، أو يَضعف بعد نيلها! ووالله لكأنما أرســـلَ هذه الرسالة لنفسي المقصّرة، أســـأل الله أن يعيني، ويوفقني لاغتنام ما بقي من عمري.

لقد مرّت العراقُ -بلد د. بشـــار- بأحوالٍ وأهوالٍ تشيب لها مفارقُ الولـــدان، واضطرته الأحـــوالُ إلى أن يفارق بلدَه لا عـــن اختيار -وما أصعـــب هذا على النفـــوس!- وأن يترك كثيرًا من أموالـــه وأمتعته التي اجتمعتْ له في عشراتِ السنين؛ لينجو بدينه وبنفسه، واستقرت به عصا الترحال في المملكة الأردنية الهاشـــمية، التـــي أكرمته بما يليق به وبعلمه، وبما يليق بأخلاق سلالة البيت النبوي الشريف، وهو في كل ذلك لا يترك التحقيق، ولا البحث، بل أخرج بعد أن جاوز الستين عشراتِ المجلدات المحقَّقة تحقيقًا علميًّا قويًّا، وعلى رأس تلك الكتب: تحقيقه لتاريخ بغداد.

وهـــو الآن -وقد قـــارب الثمانين- يعمـــل على تحقيـــق كتابين من الموســـوعات التي تَنوء بهـــا مجامع علميـــة: (التمهيد) لابـــن عبدالبر، و(المحلّى) لابن حـــزم، بارك الله فيه، وأعانه على إكـــمال هذين العملين المهمّين.

ثالثًـــا: حرصـــه على وقته، بـــل وبذلـــه الأوقات الطويلـــة في العلم والتحقيق.

لقد كان د. بشار أيامَ شبابه وقبل أن تتقدم به السنّ يُمضي قرابةَ ست عشرة ساعة في القراءة والتحقيق، وتصحيح الكتب والملازم، ومع تقدّم الســـنّ نقصتْ حتى بلغت تسع ســـاعات! وهذا شيءٌ نادرٌ في الباحثين الشباب؛ فكيف بمن هو في عشر الثمانين! ما شاء الله لا قوة إلا بالله!

وهذا الحرصُ الشديدُ على الوقت هو -بفضل الله- أحد أسباب هذا الإنتاج الغزير.

رابعًا: سُوق التحقيق كغيرها من الأسواق، فيها يتنافس المتنافسون، ومع طول باع هذا الرجل، وكثرةِ مَن يبيع، ويشـــتري في هذا السوق، إلا أنه عفَّ اللسان، لم أقف له على ســـبٍّ ولا شتمٍ، وهو إن قسا فإنما يقسو على العمل نفسه، مع البُعد عن تجريح الذوات.

بل سمعتُه مرات عدة -وهو يتحدث عن عمله في (المحلى)، و(جامع الترمذي)- يثني كثيرًا على الشـــيخ المحقق أحمد شـــاكر، ويعتذر له عن بعض ما وقع له من ملاحظات، مع انتقادِه له في منهجه في التحقيق.

وســـبحان الله! كم بين هذا المنهج وبين منهج بعضِ المحققين الذين يرون أنه لا يمكن أن يُثبت قوةَ تحقيقه إلا بنسف جهود مَن سبقه، والحطّ عليهم!

هـــذه بعضُ المعالم التي أراها جديرةً بلفت النظرِ في ســـيرة هذا العلَم الكبير، الذي أسأل الله تعالى أن يبارك في عمره، ويَنسأ في أَثَره، وأن يختم لنا وله بخير.

بَوح لجامعي مستجد

١٤٣٦/١١/١٩هـ

أحسب أن المرحلة الجامعية من أهم وأكثر المراحل التعليمية التي يشعر فيها الطالب بالاعتماد على نفسه بعد الله تعالى؛ لذا كانت هذه الأسطر التي ذكرتُ فيها شيئًا من تجربةٍ مضى عليها أكثر من عشرين عامًا، لا أزعم أن فيها جديدًا؛ لكن ربما كانت التجارب من أصدق ما يُنقل، فلأجيالنا الحاضرة حقٌّ علينا في نقل ما استفدناه، والتحذير مما جرّبناه، ولم نستفد منه، ولعل في نقل التجربة القريبة ما يعين على تحقيق أكبر المكاسب من هذه المرحلة (الذهبية) من عمر الشاب والفتاة.

مجموعُ الساعات التي يقضيها الطالب في هذه المرحلة أكثر من (ألفي ساعة) في المتوسط الدراسي وهو أربع سنوات، يتلقى فيها أنواعًا شتى من المعارف، ويلتقي أساتذةً تختلفُ مشاربُهم وطرقُهم في التعليم والتعامل، فماذا يعني هذا؟

الفَطنُ من الطلاب من صحّح نيّته في دراسته مهما كان تخصُّصه، ويتأكد هذا في طلاب العلم الشرعي، حتى لا تمضي عليهم ساعاتُ العمر دون قصدٍ حسنٍ، يضاعفُ الثوابَ، ويباركُ العملَ.

ومن علامة التوفيق للطالب أنك تراه متحليًا بزينة الأدب والخُلُقِ الحسن، عازمًا على الاستفادة من كل أستاذ في فنّه، مُعرِضًا عن أولئك الذين ينظرون للمدرسين بمناظير ضيقة لا تتجاوز المظهر! ويرى أن من نعمة الله تعالى عليه أن سخّر له بعضَ المتخصصين في فنونهم، ليفيد منهم فيما يُحسِنون، وألا يصدّه عن ذلك وجودُ ضعفٍ في بعض الأساتذة؛ لأنه يثقُ أنه ما من أستاذ يقف أمامه في الجامعة إلا وسيجد عنده ما يفيد، وإن قلّ.

وإذا غلب عـــلى ظنك -أيها الطالب اللبيب- أن هذا الأســـتاذ ليس بقوي في مادته؛ فاستفد من ذلك في حياتك العلمية بتقوية عِلْمِكَ؛ حتى لا تقـــف موقفه في مســـتقبل أيامك أمام طلابـــك، أو أمام المختصين في المجال الذي ستختاره بعد التخرج.

والأســـتاذُ -مهما بلغ من العلم في تخصصه- قد تفوته أشياء، فليس من المناســـب إظهارُ الاســـتدراك بثوب التعالم، أو الاطلاع، ونحو ذلك من الصور التي تُخفي تحتها ألوانًا من الكبر والتيه العلمي -عياذًا بالله-!

ولا أنسى أحدَ الزملاء الذي كان يأسرني بأدبه وحسن خُلقه، إذا أراد الإفادة أو الاستدراك على أستاذنا؛ فهو يطرح السؤال بأدب جمّ يكسب به قلبَ أســـتاذِه، ويعطي به درسًـــا لزملائه في كيفية التنبيه والإفادة دون جرحٍ للمشـــاعر، أو اســـتعلاء بالمعلومات، فإن الكبرَ والاستعلاءَ أحدُ الحُجب الكثيفة التي تُعمي عن رؤية الحق، وإصابة المراد، كما قال تعالى: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾[الأعـراف:١٤٦]، قال ابن عيينة وغيره من السلف: أنزع عنهم فهم القرآن[1].

(١) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ٤٤٣).

وفي قصة موســـى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع الخضِر عَلَيْهِ السَّلَامُ ألوانٌ من أدب الطالب مع شيخه، وإن كان الطالب أفضل من حيث الجملة -فكيف إذا لم يكن الأمر كذلك- حريٌّ بالموفّق مراجعتها والاستفادة منها.

ومِنْ أكثر ما استفدته في تلك المرحلة: صحبةُ الطلابِ الجادينَ الذين يُشـــعرونني دومًا بأنني مهما بذلتُ من الجهد والقراءة والاطلاع ومعرفة جديد الكتب؛ فلا أزال مقصّرًا! فكنت أستقلّ كلَّ ما أفعل، مع نيةِ شرودٍ بقصد المنافســـة -عفـــا الله عنا جميعًا- فاحذر من صحبة الكســـالى، فإن صحبتهم جرَبٌ مُعْدٍ، وداءٌ مُرْدٍ، وخسارة محقَّقة.

ومن أعظم ما استفدته من تلك الصحبة: الحرصُ الشديد على الوقت، واغتنامُ الأوقات الضائعة بين المحاضرات، وحين انتظار وصول الأستاذ لقاعة الـــدرس! فمِن طلاب الجامعـــة من أنهى قراءة تفســـير ابن كثير (الأصل) في هذه الأوقات الضائعة، ومنهم من قسّم السنوات الجامعية ليحفظ فيها أصولَ العلم، فللقرآن سنة، وبعضهم جعلها سنتين، وباقي السنوات لحفظ أهم المتون الشرعية، فحفظ مختصرَ الصحيحين، وكتابَ التوحيد، و(نخبةَ الفكر)، و(الواســـطية)، و(الورقـــات)، وغيرها من المتون التي انتفع بها في حياته العلمية بعد ذلك.

ومن الطلاب من جعل معه في سيارته -التي يتردد فيها مع زملائه- كتبًا يقرؤها بدلًا من تقطيع الوقت كلّه في الأحاديث التي يمكن الاكتفاء ببعضها، وتأجيل أكثرها.

وأحاذرك من بعض ما يفعله بعضُهم من القراءة في أثناء شرح الأستاذ بحجة اســـتغلال الوقت! مهما كان مستوى المدرس علميًّا في نظرك، فهو

كـــما لا يليق أدبًا ولا ذوقًـــا؛ ففيه من مداخل الشـــيطان والرياء ما يحبط العمل، ويمحق بركتـــه! وأيّ معنى لطلب العلم بلا إخلاص أو مجاهدة للقلب عليه؟ إنه كمَن يحشو جرابه ترابًا، يُثْقله، ولا ينفعه.

هذه بعض الخواطر التي سنح بها الخاطر، بمناسبة بدء العام الدراسي، أرجو أن تصل إلى قلوب من قصدتهـــم بها كما خرجت من قلبٍ يحبهم، داعيًا الله تعالى أن ينفع بهم الأمة جميعًا.

فهرس المراجع

١. الاستقامة. لابن تيمية الحراني. تحقيق: د. محمد رشاد سالم. نشر: جامعة الإمام محمد بن سعود - المدينة المنورة. الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ.

٢. بدائع الفوائد. لابن قيم الجوزية. نشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

٣. بلوغ المرام من أدلة الأحكام. لابن حجر العسقلاني. حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: سمير بن أمين الزهيري. نشر: دار أطلس للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية. الطبعة: الثالثة، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

٤. تاريخ بغداد. للخطيب البغدادي. تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف. نشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

٥. التعازي. لأبي الحسن المدائني. تحقيق: إبراهيم صالح. نشر: دار البشائر. الطبعة: الأولى ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٦. تفسير الطبري - جامع البيان عن تأويل آي القرآن. ابن جرير الطبري. تحقيق: الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبدالسند حسن

يمامة. نـشر: دار هجر للطباعـة والنشر والتوزيع والإعـلان. الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

٧. التمهيد لمـا في الموطأ مـن المعاني والأسـانيد. لابن عبدالـبر. تحقيق: مصطفى بـن أحمد العلـوي، محمـد عبدالكبير البكري. نـشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسـلامية -المغرب. عام النشر: ١٣٨٧هـ.

٨. جامع بيان العلم وفضله. لابن عبدالبر. تحقيق: أبي الأشـبال الزهيري. نـشر: دار ابن الجـوزي، المملكة العربيـة السـعودية. الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٩. الـدارس في تاريخ المـدارس. للنعيمي الدمشـقي (المتوفى:٩٢٧هـ). تحقيق: إبراهيم شـمس الدين. نشر: دار الكتب العلمية. الطبعة: الأولى ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

١٠. روضة العقلاء ونزهة الفضلاء. لابن حبان البُسـتي. تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد. نشر: دار الكتب العلمية-بيروت.

١١. الزهد. لأحمد بن حنبل. وضع حواشيه: محمد عبدالسلام شاهين. نشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان. الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٢. سـنن ابن ماجه. لابن ماجه. تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد - محمَّد كامل قره بللي - عَبداللّطيف حرز الله. نشر: دار الرسـالة العالمية. الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م.

١٣. سير أعلام النبلاء. للذهبي. تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط. نشر: مؤسسة الرسالة. الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

١٤. شـعب الإيـمان. للبيهقـي. حققـه وراجـع نصوصـه وخـرج أحاديثـه: الدكتـور عبدالعـلي عبدالحميـد حامـد. أشرف عـلى تحقيقـه وتخريـج

أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي - الهند. نشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند. الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

١٥. صحيح البخاري. المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر. نشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي).

١٦. صحيح مسلم. تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي. الناشر: دار إحياء التراث العربي-بيروت.

١٧. الصلة في تاريخ أئمة الأندلس. لابن بشكوال. عني بنشره وصححه وراجع أصله: السيد عزت العطار الحسيني. نشر: مكتبة الخانجي. الطبعة: الثانية، ١٣٧٤هـ-١٩٥٥م.

١٨. صيد الخاطر. لابن الجوزي. بعناية: حسن المساحي سويدان. نشر: دار القلم - دمشق. الطبعة: الأولى. ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

١٩. العقد الفريد. لابن عبد ربه الأندلسي. نشر: دار الكتب العلمية - بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ه.

٢٠. عيون الأخبار. لابن قتيبة الدينوري. نشر: دار الكتب العلمية-بيروت. تاريخ النشر: ١٤١٨هـ.

٢١. قصيدة للدكتور عبدالرحمن العشماوي، نُشرت في (الجزيرة) بتاريخ ٢١/ ١٠/ ١٤٢١هـ.

٢٢. كتاب العلم. لابن عثيمين. تحقيق: صلاح الدين محمود. نشر: مكتبة نور الهدى.

٢٣. كشف المشكل من حديث الصحيحين. لابن الجوزي. تحقيق: علي حسين البواب. نشر: دار الوطن-الرياض.

٢٤. لسان الميزان. لابن حجر العسـقلاني. تحقيق: دائرة المعارف النظامية - الهند. نشر: مؤسسـة الأعلمي للمطبوعات بـيروت - لبنان. الطبعة: الثانية، ١٣٩٠هـ-١٩٧١م.

٢٥. لفتة الكبد في نصيحة الولد. لابن الجوزي. تحقيق: أشرف بن عبدالمقصود أبو محمد. نشر: مكتبة الإمام البخاري. سنة النشر: ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

٢٦. مجلة الدعوة، العدد الخاص عن الشيخ - بتاريخ ٣/ ١٠/ ١٤٢١هـ.

٢٧. مجموع الفتاوى. لابـن تيمية الحراني. تحقيـق: عبدالرحمن بن محمد بن قاسـم. نشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية. عام النشر: ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

٢٨. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين. لابن قيم الجوزية. تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي. نشر: دار الكتاب العربي-بيروت. الطبعة: الثالثة، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

٢٩. المسـتدرك عـلى الصحيحين. لأبي عبـدالله الحاكم. تحقيـق: مصطفى عبدالقـادر عطا. نـشر: دار الكتب العلمية-بـيروت. الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ-١٩٩٠م.

٣٠. المسـتطرف في كل فن مستطرف. للأبشيهي. نشر: عالم الكتب-بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ.

٣١. مسند الإمام أحمد بن حنبل. لأحمد بن حنبل. تحقيق: شعيب الأرنؤوط-عادل مرشد، وآخرون. إشراف: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي. نشر: مؤسسة الرسالة. الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

٣٢. المطالب العالية بزوائد المسـانيد الثمانية. لابن حجر العسقلاني. تحقيق: مجموعة من الباحثين في ١٧ رسـالة جامعية. تنسـيق: د.سعد بن ناصر بن عبدالعزيز الشَّـثري. نشر: دار العاصمة للنشر والتوزيع-دار الغيث

للنشر والتوزيع. الطبعة: الأولى.

٣٣. معجم مقاييس اللغة. أحمد بن فارس. تحقيق: عبدالســـلام محمد هارون. نشر: دار الفكر. عام النشر: ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٣٤. ملحق (الأربعاء) الصادر عن جريدة المدينة ٢٩/ ١٠/ ١٤٢١هـ.

٣٥. جريدة (الجزيرة)، الأعداد الصادرة أيام ٢٠-٢٣ / ١٠/ ١٤٢١هـ.

٣٦. مقال لمعـــالي الدكتور عبدالله التركـــي في مجلة الأربعـــاء (١٣) ، بتاريخ ٢٩/ ١٠/ ١٤٢١هـ.

٣٧. مناقب الإمام أحمـــد. لابن الجوزي. تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحســـن التركي. نشر: دار هجر. الطبعة: الثانية، ١٤٠٩هـ.

٣٨. ميـــزان الاعتدال في نقد الرجال. للذهبـــي. تحقيق: علي محمد البجاوي. نـــشر: دار المعرفـــة للطباعة والنـــشر، بيروت-لبنـــان. الطبعة: الأولى، ١٣٨٢هـ-١٩٦٣م.

٣٩. الورع. لابـــن أبي الدنيا (المتوفى:٢٨١هـ). تحقيـــق: أبي عبدالله محمد بن حمد الحمود. نشر: الدار السلفية - الكويت. الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٤٠. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. لابن خلكان. تحقيق: إحسان عباس. نشر: دار صادر-بيروت.

فهرس الموضوعات والفوائد

١. **التفكير بالموجود** ٧
- قصة عروة بن الزبير مع (التفكير بالموجود)
- متى نفعّل أسلوب: التفكير بالمفقود؟
- ماذا يفقد الذي يتخلف عن صلاة الجماعة من الأجور؟

٢. **لماذا لا تَندب الحسين؟** ١١
- كيف تحاور من يسألك: لماذا لا تندب الحسين؟
- يجتمع للمسلم في عاشوراء عبادتان.
- متى بدأ اللطمُ والشقُّ المتعلقُ بمقتل الحسين؟
- لماذا لم يَصنع النبي مأتمًا لموت هؤلاء؟

٣. **حاجز المهنة** ١٥
- تاريخ الانتساب للمهن.
- ماذا قال الأعرابي للإمام أحمد في سجنه؟
- هؤلاء الشباب نموذج معاصر مشرق.
- نماذج معاصرة لمن تجاوزوا حاجز المهنة.

٤. **دُرَّةُ الحُفَّاظ** ١٨
- كيف كان الشيخ يحاول دفع العجب عن نفسه؟
- مجالس الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- من أعاجيب ما ذُكر في ترجمته.
- وصية مجرّب.

٥. **مشروع (العالِم المتفرّغ لنشر العلم)** ٢٣
- مما يستوقف القارئ في ترجمة أبي عبيد القاسم بن سلّام رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- فكرة: كفايةِ العالِمِ وتفريغه للعلم عند السلف.
- من العلماء الذين لم يستطيعوا التفرغَ لبثّ العلم حتى استعفوا من وظائفهم.
- هل يُفرَّغ أي عالم؟
- نموذج قريبٍ، لأثَرِ تفرّغ العالم في إنتاجه المكتوب والإنتاج المتمثل في الطلاب.

٦. **مواقف في الطائرة (١ / ٢)** ٢٧

- إحدى مضيفات الطائرة تستغل وقتها في الصلاة!
- صاحب الكتاب وصاحب الفراغ!

٧. **مواقف في الطائرة (٢/٢)** ٣٠
- هنا تنبعث لغة الفطرة!
- لم أتذكر في هذا الموقف الرهيب إلا شيئين!
- ما سِر ثبات هذا الراكب على الرغم من القلق الذي ساد جميع الركاب؟

٨. **اسمٌ مستعار** ٣٤
- ما يحتمل فيه الاستعارة وما لا يحتمل.
- مِن أخطر مواضع هذا النوع من (التستر).
- من مزايا الكتابة بالاسم الصريح.

٩. **لحظات الاحتضار بين حَيرة المتكلمين.. ويقينِ العجائز** ٣٧
- ماذا قالت العجوز لما نزل بها الموت؟
- وماذا قال أبو المعالي الجويني والرازي في آخر حياتهما؟
- ألا يخشى دعاة الانفتاح غير المنضبط من تكرار تجربة الجويني أو الرازي؟!

١٠. **الكرسيّ** ٤١
- المفارقة العجيبة في هذا الكرسي!
- لا تَصلح الرياسة إلا لمن جمع شرطَين.
- مِن مظاهر الأسى المعجّل لأصحاب الكراسي المعزولين بغير رضاهم.
- مِن أشدّ ما يُبتلى به بعضُ عُبّادِ الكرسي.

١١. **الكرسي الثاني** ٤٤
- الرد على ما تفضل به القراء على المقال السابق من ملاحظات.
- ماذا استُنبط من قول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ [يوسف:٥٥]؟
- مِن فقه الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ.
- المبتُلى بهذه الكراسي، لا غنى له -لينجو- عن هذا.

١٢. **مشغول!** ٤٧
- التوقّف عن العمل علامةُ مرَض.
- ما السبب في انتشار هذه (الفوضى المنظّمة؟)

- ثمة نوعٌ من الشغلِ لهجتْ به ألسنةُ السلف الصالح رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.
- من أشرف معاني هذا (الانشغال).
- كلمة قصيرة معبّرة للإمام ابن مهدي.

١٣. التربية بالقرآن.. والعودة إلى المنهج الأصيل ٥٠

- ملتقى: (التربية بالقرآن... نماذج وتجارب).
- ما المراد بهذا المبدأ: (الإيمان قبل القرآن؟)
- قصص للصحابة تبين أثر التربية في مبدأ: الإيمان قبل القرآن.
- إعادة مبدأ: (الإيمان قبل القرآن) لحلقات مساجدنا.
- الحُفّاظ قليلون على مدار القرون.

١٤. ثقافة الاعتذار ٥٤

- من أهم أسس العلاقات.
- موقف نبوي يجسد ثقافة الاعتذار في أبهى صورها.
- التأخر في الاعتذار.
- صاحب الحق والتماس الأعذار.
- أثقل الإخوان وأخفّهم.

١٥. صفحة من حياة شيخ الحنابلة ٥٨

- التواضع غير المتكلَّف.
- التواضع العلمي.
- التواضع الشخصي.
- ماذا قال الشيخ ابن عقيل لـ أ. د. عبدالمحسن العسكر حينما قدّم له؟
- الناسُ يحتاجون لطالب العلم المتواضع.

١٦. قناة يوتيوبية ٦٢

- مؤشر واضح على نجاح هؤلاء إعلاميًّا وفنيًّا.
- رسائل قصيرة إلى إخواني وأبنائي ملاك القنوات اليوتيوبية.
- من أي الفريقين تحب أن تكون؟

١٧. فقهاء الحسد ٦٦

- من صور (الفقه بأدواء النفوس).
- من فقه القرآن والسنة في التعامل مع الحاسد.

- الحسد لن يَضرني ولن ينفعك!
١٨. المِرآتيون ٦٩
- قصة صديقي الذي طلب مني أن أذكر له عيوبه!
- سل أصدقاءك المقربين عن عيوبك.
- مِن توفيق الله للمنصوح.
١٩. كسوف الأخلاق ٧٢
- قصة المأمون مع خادمه.
- صاحبي والسائق الجحود!
- ما الهدي العام الذي سلكه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع الناس؟
٢٠. شوكة قادت إلى الجنة ٧٥
- من مهور الجنة اليسيرة.
- مقاوِل طموحه أن يُسلِم على يديه: ثلاث مئة ألف شخص!
- تعدد وسائل الخير السهلة
٢١. تعلمتُ من ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ **(١)** ٧٨
- الكتابة التي تُعْنى بإبراز معالم القدوة والتأسّي به لا تزال قليلة.
- المعْلمُ الأولُ: وضوح الهدف.
- هل تولّى الشيخ القضاء؟
- أحد طلاب الشيخ حدَّد هدفه.
٢٢. تعلمت من ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ **(٢)** ٨٢
- المعْلمُ الثاني: الثبات على المنهج والهدف الذي رسمه لنفسه.
- ابتُلي الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ببعض التُّهم في عقيدته في أول القرن الهجريّ الحالي.
- من صور ثبات الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ على منهجه.
٢٣. تعلمت من ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ **(٣)** ٨٥
- المعلم الثالث: العناية بالقرآن حفظًا وفهمًا وعملًا.
- من مظاهر الاعتناء بالحديث النبوي أوائل القرن الهجري الحالي.
- مما أتذكره من مقابلة للشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ضمن سلسلة (على طريق الدعوة) قبل عشرين سنة أو أكثر.
- تعليق الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن

مُّدَّكِرٍ﴾[القمر:٢٢].
- من صور عنايته بهذا الأصل العظيم.
٢٤. **تعلمت من ابن عثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤) ٨٩
- المعلم الرابع: حبّه لنشر العلم، واغتنام الفرص لتبليغ الشريعة.
- من صور حب الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لنشر العلم.
- قصة تبين دقة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الوفاء بالوعد.
- من عادة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا جلس في مجلس عام.
- من أشدّ المواقف تأثيرًا في هذا الباب.
- خوف الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الفتيا وكتم العلم.
٢٥. **تعلمت من ابن عثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥) ٩٢
- المعلم الخامس: التثبت في النقل والحكم.
- ماذا فعل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عندما سها في نِسبة لفظٍ من ألفاظ الحديث إلى البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ؟
- كيف يجيب الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا سُئل عن سؤال له ارتباط ببعض التخصصات الطبية؟
- جواب الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن حكم قطع إشارة المرور في الخط الخالي من السيارات.
٢٦. **تعلمت من ابن عثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦) ٩٤
- المعلم السادس: عنايته بالتحصيل العلمي لطلابه.
- طريقة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إلقاء دروسه.
- قصة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع الدكتور عبدالله الغذامي عندما كان طالبًا في المتوسط عام ١٣٨٠هـ تقريبًا.
- خلاصة ما استفاده الدكتور من قصته مع الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
٢٧. **تعلمت من ابن عثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧) ٩٨
- المعلم السابع: حرصه على تطبيق السنة في أموره كلها.
- أمثلة تصدّق هذا المعْلم السابع.
- المعْلمُ الثامن: حرصه على الوقت.
- قصة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع أ. د. عبدالله الطيار ودرس عملي لضبط الوقت.
- فترةَ ذهابِ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من البيت إلى المسجد.

- كتابان مطبوعان للشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من شرحه في أثناء الطريق!
٢٨. **تعلمت من ابن عثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٨) ١٠١
- المعلم التاسع: الزهد في الدنيا.
- بيان حقيقة الزهد.
- قصيدة العشماوي تصف زهد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- كيف رد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما عُرض عليه بناء بيته على الطراز الحديث؟
- من جميل ما وقفتُ عليه مما كُتِب عن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وسر القبول الذي وضع له.
٢٩. **تعلمت من ابن عثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٩) ١٠٥
- المعْلمُ العاشر: الورع.
- تطبيقات عملية لهذا الخُلق من حياة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- ماذا كان يصنع الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا غاب عن التدريس في الجامعة؟
- كيف رد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على من أراد إعطاءه مكافأة على محاضرته؟
- حتى في هذا الظرف لم يَنْسَ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يتورع لماله!
٣٠. **تعلمت من ابن عثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٠) ١٠٨
- المعْلمُ الحادي عشر: التواضع.
- مواقف مختصرة يتجلى فيها تواضع الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- تواضع الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع الأطفال.
- تواضع الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع عامة الناس.
- كيف تعامل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع صاحب السُّوك -جمع سواك- الذي قطع الدرس؟
٣١. **تعلمت من ابن عثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١١) ١١٢
- المعْلمُ الثاني عشر: الاهتمام بشؤون المسلمين في الداخل والخارج.
- من أعظم القضايا التي كان يرُكّز عليها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أحاديثه.
- صور من اهتمام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقضايا الناس في الداخل.
- صور اهتمام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقضايا المسلمين في الخارج.
- قصة تبرع الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لشراء مصاحف للمسلمين في السجون الأمريكية!
٣٢. **أمثال مُحبِطة** ١١٦

- الأمرُ المؤلم في هذا الموضوع.
- «ما تَرك الأوَّلُ للآخِر»!
- «يوم شاب دخلَ الكُتّاب»!

٣٣. لا تُنَفروا إخوانَكم من رمضان ١٢٠

- كم تعجبني تلك الكلمة العميقة من ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ!
- الحديث عن المقامات العالية والأحوال الفاضلة يصلحُ أن يركّز على طلاب علم.
- تأمل معي هذا الموقف النبوي.
- مما ينبغي ألا يَغيب عن بال الواعظ.

٣٤. حتى ننتفع بالتراويح ١٢٣

- التراويح ليست مجرد تظاهرة دينية رمضانية.
- من أفضل السُّبُل للانتفاع بهذه المائدة الربانية (التراويح).
- (التوسع في التدبر... وقفة مراجعة)
- مما ينغص فرحة عودة الناس لتدبر القرآن.
- هيبة التدبر يجب أن تكون كهيبة التفسير.
- نماذج مؤسفة للتدبر الخاطئ.
- مِن أعجب ما سمعت من التدبر الخاطئ!
- باب التدبر أوسع من باب التفسير من جهة.
- من جملة النصيحة لكتاب الله.

٣٥. التوسع في التدبر... وقفة مراجعة ١٢٦

٣٦. يا زوّار الحرمين ١٣١

- إحسانُ القصد والنية.
- العمرة المستحبة والصلاةُ في الحرم أمور مستحبة، لكنْ رعايةُ الأهل والأولاد واجبة!
- لا تهملوا أولادكم في الحرم.
- منكرات يجب على المسلمة اجتنابها -خاصة في الحرمين-.
- صلاة المرأة في بيتها خير أم في الحرم؟
- تفقّهوا يا زوار الحرمين.

- من مداخل الرياء والعجب.
٣٧. عندما يجوع القلب ١٣٥
- حقيقة جوع القلب.
- وصية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحكيم بن حزام.
- جوعُ القلب من لذة القرآن!
- (لا تنغصوا فرحة العيد)
- قطيعة الأقارب هي رأس هذه المنغصّات!
- قليلًا من العتاب وكثيرًا من التغاضي.
- حشمة المرأة عند الأقارب.
- «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته».
٣٨. لا تنغصوا فرحة العيد ١٣٨
٣٩. المبدأ ١٤٢
- ما قصة هذه العبارة: لا تترك مبدأك لأن غيرك لا يلتزم به؟
- يَصِل قرابته وهم يقطعونه!
- ما الذي منع حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يشهد معركة بدر؟
- الدكتور تقي الدين الهلالي نموذج معاصر مشرق.
٤٠. الثروة المُهدَرة ١٤٥
- أهم درس استفاده هذا المبتَعث لأمريكا.
- من أعظم أسباب تفشي هذا الهدْر المؤلم للحياة.
- كيف يمرُّ حديثٌ كهذا على مسلمٍ ولا يحرّك فيه ساكنًا تجاه هذا الوقت!
- من أحسن ما مرّ بي من كلمات عن هذه الثروة.
- نصيحة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ لولده.
- من أين يبدأ أول العلاج لهذه المشكلة؟
- سبل للمحافظة على هذه الثروة.
٤١. الرموز في مرمى الغلاة ١٤٩
- طريقة اليهودية نصّت عليها (بروتوكولات حكماء صهيون).
- عمرو بن عبيد والحط من رموز السلف.
- حاجة الشاب في بواكير عمره إلى قدوة يتمثّلها.

- الغلاة الجدد وطريقتهم في تشويه الرموز.
- ماذا يعني: تحطيمُ الرموز الشرعية؟

٤٢. نفحةٌ مكيةٌ ١٥٣

- هذا ما يلوح بذاكرتي كلما زرت البيت الحرام.
- دعوة المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تصيب صناديد قريش في بدر.
- قصة نزول سورة المسد.
- ذهب أبو لهب وبقيت دعوة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- من ميادين نصر الإسلام.

٤٣. معلّمٌ في ذاكرة تلميذ ١٥٦

- قصة معاوية السلمي والرجل الذي عطس في الصلاة.
- درس تربوي من القصة.
- صديقي يحدّثني -وبمرارة- عن موقفٍ حصل له مع معلمه!
- همسة في آذان المعلّمين.

٤٤. هبوط قلبٍ في مدرج المطار ١٥٩

- من نصائح طبيب القلب لصديقي المجهَد.
- عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قصة تشديده على نفسه بالعبادة.
- رسالةٌ لكل مَنْ يركض لاهثًا في ميادين الحياة.
- (رؤوسُ أقلامٍ... في رؤوسِ أعلام ٣، أيامٌ مع أمير المحققين)
- من الفوائد المتعلقة بلقاء هؤلاء الأعلام.
- أهم المعالم التي استفدتها من أمير المحققين.
- كتب بأصبعه مئة وخمسين ألف صفحة!
- (٩٠٪) من أعماله العلمية كان بعد نيله درجة الأستاذية (بروفسور)!
- يعمل على تحقيق: (التمهيد) لابن عبدالبر، و(المحلّى) لابن حزم!
- حرصه على وقته.
- عفّ لسانه.

٤٥. رؤوسُ أقلامٍ... في رؤوسِ أعلام (٣) ١٦٢

٤٦. بَوح لجامعيٍ مستجد ١٦٦

- مجموعُ الساعات التي يقضيها الطالب في الجامعة.

- من علامة التوفيق للطالب.
- ماذا تفعل إذا غلب على ظنك أن هذا الأستاذ ليس بقوي في مادته؟
- لا أنسى زميلي هذا!
- مِنْ أكثر ما استفدته في مرحلة الجامعة.
- من أعظم ما استفدته من تلك الصحبة في مرحلة الجامعة.
- القراءة في أثناء شرح الأستاذ بحجة استغلال الوقت!

٤٧. فهرس المراجع ١٧٥

الأحداث والمتغيرات -بسخونتها- تلقي بظلالها على المجتمع بكافة أطيافه، فتؤثر فيهم، فربما اهتزت الصورة، أو اختل النظر لتلك الأحداث.. فجاءت هذه المقالات في مناسبات مختلفة، وموضوعات متفرقة، علَها أن تكون ظلاً يجد فيه القارئ الكريم ما ينقله من حرارة تلك الأحداث إلى «فيء» الكلمة الظليل.. تسقي شجرتها بآية محكمة، أو سنةٍ ماضية، أو حكمةٍ سائرة.

ISBN: 9786030271504
9 786030 271504
- الدعوة الإسلامية
تلهم المعرفة
Inspiring Knowledge
Obeikan Reader
@ObeikanPub
العبيكان للنشر
Obeikan Publishing